فصـــــــول فـــــي الوعـــــي القومـــــي

إتيـــــان صقـــــر
أبـــو أرز

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
تشـــرين الأول١٩٨٦

فصول في الوعي القومي

فصول: هذه فصول، بل حلقات رؤى، تنفصل، حتى لتحسبها إلتماعاً إثر إلتماع، من إطلالات الثوريين الأنقياء، الحازمين، وتتصل حتى لتخالها، منهجاً من مناهج الإصلاحيين المدرسيين.

في: هي جزء من المختزن الكثير في الذات، والمرتقب الكثير في البال، وما يزال لنا الكثير نقوله.

الوعي: وكان لا بد من إدراجها في سلم الوعي، لأن السبات قد طال، والضلال قد إستشرى، والتزوير قد تمدّد، ليصير سيّد "السوق" الفكرية.

القومي: ولأن لبنان، منذ كان، كتلة من وجود، وليس مربّعات طائفية أو دوائر طائفية ودينية، أو حضارات متجاورة على تعدد كمّي، كان لا بُدّ من نسبتها إلى الطرح القومي الذي إلتزمه حرَّاس الأرز.

أطلت هذه الفصول علينا، منذ سنوات، إفتتاحيات، لنشرتنا الحزبية "الوعي القومي"، ولا كالإفتتاحيات.

هي المدخل الذي يوصل إلى كل ما بعد، وهي "البَعْدُ" الذي يعيد إلى البدء.

وإذا إنفصلت في هذا الكتاب، عن مواقعها، فلكي تشكل معاً، تكتلاً فكرياً، يتنامى بعضه من بعضه، تنامياً عضوياً.

محور هذه الفصول هو لبنان، الأرض، والتاريخ، والمؤسسات، والإنسان:
الأرض لأنها وعاء الوجود.
والتاريخ لأنه فعل الوجود.
والمؤسسات لأنها حقل الوجود.
والإنسان لأنه غاية الوجود.
وفي الكل، ومع الكل، وقبل الكل وبعده، لبنان.

وهذا اللبنان، كيان يتجدد، كلياً ليبقى، ولا يتجمد شرائحياً ليزول.

يتجدد من ديمومة، متفاعلة وفاعلة ومستقلة، ديمومة حضارية وقومية، لا مجرّد مظهرية مدنية وتعايشية، ولا معرّضة للبازار والتنازل والمساومة وتوافق أسياد المصالح.

وإذ يتجدد هذا اللبنان، يصف واقعه، ويرسم مساره، ويستمر في مداره.

أما الخط البياني لهذا الإستمرار، فهو قدر الأمّة، بين المقاومة والجراح، بين الصمود والبناء، بل بين الكينونة والتلاشي.

وأما معالم هذا الخط البياني، فهي، قفزة جَسورة فوق المذهبية والطائفية والإقليمية والتعددية والثنائية، إلى الوحدة القومية اللبنانية، المتناسجة والمتشاركة، والمتآزرة.

ولا بُدّ في صلب هذه القومية من ضامن وضابط هو "العلمنة" لأن فيها تتحقق الديمقراطية، والكفاءة، والتكافؤ، والحق الوطني، والواجب المواطني، والحرية الكاملة.

وبغير هذه العلمنة، لن تنتفي التناقضات التي يستغلها أعداء الأمة لعقد صداقات قاتلة، وأخوة ظالمة، ولمنع صداقات محيية وجوار سيد.

فصول يمكن أن تعتبر سيراً. ولكنه سير معاكس. وهو إيجابي، لأن معاكسته ضرورية للقضاء على مناهج التكاذب والتحايل والتخابث، وهو وحده يفتح الباب عريضاً لأجيال من اللبنانيين الطامحين إلى الإستمرار في هويتهم وحضارتهم ووحدتهم وعطاءاتهم لصيانة الأرض، وتفعيل التاريخ، وتجديد المؤسسات، وإحترام الإنسان، وسيادة لبنان.

الياس مطر

الوعي القومي هو الطريق إلى الخلاص

لماذا صدرت "الوعي القومي" ولماذا سمّيت هكذا، ولِم إختير لغلافها هذا اللون بالذات؟ تساؤلات قد تمرّ ببال البعض، فرأينا أن نجيب عنها:

أولاً: لا نزال، نحن اللبنانيين، نفتقر إلى الوعي القومي، رغم كل الويلات التي حلت بنا، وكأن الحرب لم تغيّر بعد شيئاً في تفكيرنا السياسي.

أ- بايعنا فريقاً من السياسيين التقليديين طيلة نصف قرن تقريباً، ولا نزال نبايعهم الولاء حتى اليوم، بالرغم من حالة الموت والخراب التي أوصلونا إليها، والأغرب من هذا إن هناك من يستمِرّ في الإعتقاد إن الخلاص سيأتي عن طريق هؤلاء السياسيين.

ب- مِنّا مَنْ آمَنَ بالعروبة من دون إدراك خطر الإنزلاق في تيّاراتها فكانت وبالاً علينا، والأغرب من هذا إن هناك من لا يزال يعتقد بأن الخلاص سيأتي عن طريق العرب والعروبة...

ج- مِنَ اللبنانيين مَنْ آمَنَ "بالقضية الفلسطينية" وعمل لها. وبالرغم من أن هذه "القضية" خرّبت لبنان وقتلت أهله، فخلقت لنا قضية لبنانية هي بنظرنا أهم من كل قضايا العالم، فإن هناك من لا يزال يعتقد بأن للفلسطينيين قضية، رابطاً إياها بالقضية اللبنانية، بينما الوعي القومي يفرض علينا القول بأن الفلسطينيين قد خسروا "قضيتهم" بمجرّد أن تطاولوا على لبنان، وإن حل القضية اللبنانية يجب أن يأتي بمعزل عن كل قضايا العالم.

د- من اللبنانيين من لا يزال يؤمن بحسن نوايا سوريا رغم حرب الإبادة التي شنّتها علينا وأطماعها التاريخية بلبنان، والأغرب من ذلك إن هناك من لا يزال يدعوها "شقيقة" ويعتقد إن الحل سيأتي عن طريقها.

ه- تعوّدنا عدم محاسبة المسؤول، لا بل تبريره عندما يستغل منصبه، وعندما يتخاذل، ويخون ويتجابن، نقول مثلاً "الله يساعدو شو طالع بإيدو" أو "صحتين أكل وطعما" أو "الشاطر ما يموت"... وهذه في رأينا هي أحَطّ دركات التخلف السياسي، وأن كل من يستعمل هذه الأمثال البالية التي خلفها لنا الإنتداب التركي،

يجب أن يلقى العقاب الصارم. إن الوعي القومي يقول بأن الدول الصحيحة تبنى يوم يبدأ الشعب بمحاسبة المسؤولين.

و- إنزلاق معظم اللبنانيين في القوقعة الطائفية، الأمر الذي كلفنا غالياً، فدفعنا ثمنه دماً ودموعاً خلال حقبات عديدة من التاريخ، بينما الوعي القومي يقول بأن الإلتفاف يجب أن يكون على مستوى الوطن، وليس على مستوى القوقعة الطائفية.

ز- سيطرة الأنانيّة الفرديّة على معظم اللبنانيين وهي التي حوّلت كل تفكيرهم، وعقلهم، بإتجاه مصالحهم الخاصة، من دون الإلتفات إلى المصلحة العامة، وهذا ما يفسّر نجاح الفرد في لبنان على حساب الوطن والمجتمع.

ح- جهلنا لتاريخ لبنان ولتراكم التراث الذي يحمله هذا الوطن الصغير الحجم الكبير الهمّة، هذا الجهل الذي دفعنا إلى طمس وجه لبنان الأصيل بأقنعة مختلفة، من عثمانية، وفرنسية، وعربية، بينما الوعي القومي يرفض هذه الأقنعة الغريبة، ويتمسّك بالوجه اللبناني الأصيل حفاظاً على القيم "الفريدة" التي يمثلها هذا الوطن العظيم.

ط- إقتناع بعض اللبنانيين بأن الحرب يجب أن تنتهي في لبنان بأي ثمن وكيفما كان، أي على طريقة "بَوس اللحى" أو على طريقة "لا غالب ولا مغلوب" بينما الوعي القومي يفرض علينا القول، إن الحرب يجب أن تنتهي بحلول جذرية، تمنع تكرارها كل عشر سنوات، وهذا يعني أن نبدأ بتنظيف لبنان من كل الغرباء مسلحين وغير مسلحين، ومن ثم المباشرة فوراً في بناء الدولة الجديدة القائمة على العِلم والقداسة والكفاءة والتجرّد والبطولة والعنفوان.

ثانياً: أما تسمية هذه النشرة بالوعي القومي، فيعود إلى أننا توخّينا أن يكون الإسم مطابقاً للمعنى والمضمون، إضافة إلى أن كلمة "قومية" قد إحتكرها أصحاب العقائد المستوردة حتى كادت تصبح وقفاً عليهم، أما نحن فقد قصدنا إلى إستعمال هذه الكلمة للدلالة على إن هناك قومية، عمرها آلاف السنين، لن يستطع أحد طمسها، رغم كل المحاولات اليائسة، ألا وهي "القومية اللبنانية".

ثالثاً: أما لون الغلاف، فهو اللون الأرجواني الذي إكتشفه الفينيقيون أجدادنا، والذي أبقوا صناعته سرّاً من أسرارهم، فتهافت عليه الملوك والحكام في تلك العصور، إذ كانوا يتباهون بلبس الثياب الأرجوانية اللون، وكانوا كذلك يرسلون نساءهم وزوجاتهم وبناتهم إلى صيدا وصور لشراء الألبسة الأرجوانية إضافة إلى الحلي وأدوات التبرج في عصر كانت صيدا وصور منارتي العالم.

رابعاً: إما الأحرف الموجودة على ظهر الغلاف فهي الأحرف الأبجدية التي إخترعها الفينيقيون، والتي ما تزال حتى اليوم من أعظم الإكتشافات التي ساهمت إلى

أقصى حَدّ في نشر العِلم، والحضارة في العالم، عِلماً إن كل دول العالم تستعمل اليوم الحرف الفينيقي المعدّل، ما عدا الصين واليابان، ويوم يقرر هذان البلدان اعتماد الحرف المسمّى اليوم "لاتينياً"، يكون الحرف اللبناني قد عَمّ العالم بأسره.

حركتنا: كيف بنيناها

هناك شروط أساسية يجب أن تتوفر في كل حركة سياسية لكي تستمرّ وتصل إلى أهدافها المنشودة. ومنها إستمدّينا معطيات حركتنا وبنائها:

أولاً: بناء حركتنا على أسس فكرية لأن الفكر وحده يبقى والأشخاص يزولون، من هنا كان تركيزنا على المبادىء وإعطائها الأولوية المطلقة في عملنا الحزبي قبل الإهتمام بالشؤون الأخرى.

ثانياً: وعي حركتنا لكل المشاكل السياسية والإجتماعية والإقتصادية التي يتخبّط بها الوطن، وإدراكها في العمق، وعدم الإكتفاء بالمظاهر العرضية لهذه الأمراض، وبإختصار يجب تشخيص الأمراض تشخيصاً صحيحاً.

ثالثاً: تحلي حركتنا بنظرة شمولية تتناول كافة الحلول التي من شأنها أن تخرج الوطن من الدوّامة التي يعيش فيها. لذلك يجب إعتماد دراسات علمية لكل هذه الحلول فتأتي حلولاً جذرية وموضوعية تتوافق ومتطلبات العصر.

رابعاً: تحليها بأخلاقية عالية تبدأ على مستوى المسؤولين الكبار مروراً بالمسؤولين الثانويين وإنتهاء بآخر محازب. إن الأخلاق هي الشرط الأساسي لكل بناء حزبي خصوصاً إذا كانت الأهداف سامية وترمي إلى إصلاح ثوري، إذ لا يعقل أن ينادي بالإصلاح من يلزمه إصلاح، وأن يبشّر بالثورة من تنقصه أخلاق والمثل العليا.

خامساً: تميزها بالإنضباط الحزبي الذي هو أساس في المحافظة على البنية الحزبية وفي تنفيذ المشاريع التي تهدف إلى الإصلاح المنشود.

وبمعنى آخر الإنضباط يعني الطاعة المدركة للرؤساء وإحترامهم وإيلاءهم كل ثقة ورفض التشكيك بهم.

سادساً: إتصاف المسؤولين، كل المسؤولين، بالصفات الكبرى الثلاث: المحبة، والمعرفة، والحرية. والمحبة تعني محبة الله والأرض والإنسان ورعاية كل العناصر الذين هم في أمرتهم رعاية صحيحة، وأن يكونوا القدوة لمن هم دونهم في جميع تصرفاتهم حتى الشخصية منها.

سابعاً: التمتّع بروح المسؤولية في كل عمل أو منصب يكلف به المحازب، والتصرّف على أساس إنه المسؤول الأول والأخير عن هذا العمل، أي عليه أن يبتعد عن روح الإتكالية والإنهزامية، وأن يتحلى بروح المبادرة الشخصية.

ثامناً: التحلي بالروح الرسولية لدى كافة المحازبين الأمر الذي يعني التبشير بالمبادىء التي يؤمنون بها في مجتمعاتهم ومحيطهم بغية إقناع أكبر عدد من المواطنين بصحة هذه المبادىء لتهيئة رأي عام متجاوب معها ومتحمّس لها، وخلق أجواء مناسبة تتقبل الثروة الإصلاحية التي تتشدها الحركة.

تاسعاً: إنشاء الكادرات الحزبية المدروسة بشكل علمي وسليم بهدف إستيعاب أكبر عدد من المحازبين لدى تجاوبهم مع أهداف الحركة وتطلعاتهم.

عاشراً: إقتناعنا الأكيد والنهائي بأن الدولة الجديدة التي نسعى إلى تحقيقها يجب أن تقوم على أساس العنفوان الوطني المتجسّد في رجولة المسؤولين وصلابة مواقفهم، وعلى أساس الطموح الذي يخلق من الضعف قوّة ومن التردد بطولة، بإعتبار إن الأوطان الصغيرة لا تبنى إلا بالأحلام الكبيرة، وإن الوطن الصغير لا يستمرّ إلا بالدور الكبير.

الثالوث الأيديولوجي

تقوم عقيدتنا في حزب حرَّاس الأرز على الإيمان الراسخ بثالوث هو الله والإنسان ولبنان، وهذا الثالوث هو جوهر عقيدتنا فيما هو جوهر الكون والوجود.

فالله هو محور الكون، بل هو الكائن الأول والأمثل، الواجب الوجود، الخالق من العدم، المالك السرمدية، المحتوي الزمان والمكان في أبعادهما، وإليه تتوق الكائنات جميعها.

أما الإنسان فهو محور العالم، وأرقى الكائنات وأفضلها، والمخلوق على صورة الله ومثاله، والمالك الأبدية كما الله، أي إنه باق بعد الموت بروحه الخالدة خلود الله.

ولكي لا نسترسل كثيراً في هذا البحث اللاهوتي وفي سبر أغوار ما وراء الكون وإكتناه أسراره، نقول إنه من المستحيل التسليم بأن المادة أبقى في الوجود من الإنسان، أي إن المادة قادرة على أن تبقى آلاف السنين، بينما الإنسان ينتهي بعد سبعين سنة أو ثمانين.

والأمر في غاية البساطة، فالإنسان أفضل من المادة وأسمى منها لأنه ينفعل ويفعل، إما المادة فتنفعل من دون أن تفعل.

وعلى سبيل المثال، لا يمكننا التسليم بأن صخرة ما تستمر في الوجود وتبقى آلاف السنين بينما معدّل عمر الإنسان هو ٦٠ عاماً فقط، علماً إن الإنسان قادر على إزالة هذه الصخرة وعلى محو أثرها وإعادتها إلى الذرّات الأساسية التي تتكوّن منها. لذلك تمسكنا بالإيمان بالإنسان بعد الله وقبل لبنان، وإعتبرناه القيمة الأساسية في هذا العالم الذي تتوق إليه الكائنات الأرضية جميعها.

وأما لبنان، الركن الأخير في هذا الثالوث، فهو الوطن الأول والأفعل في هذا العالم، لا بجماله وبهائه فحسب، وإنما بتراثه العظيم الذي يحتضنه منذ أقدم العصور، وبإنسانه الفَذّ الذي يعتبر أفضل البشر قاطبة، وبالقيم الإنسانية الخالدة التي يمثلها هذا الوطن الفريد الذي تجاسرنا وأعلنّاه وطن الله على الأرض. وهو على صغره وضيق رقعته نقطة الإرتكاز في هذا العالم ومحور الفكر فيه، وإليه تتوق الحضارات كلها.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن التثليث عادة لبنانية قديمة تمثلت في بناء الهياكل والمعابد اللبنانية في العهود الفينيقية، وإن الثالوث إيمان لبناني قديم تمثل في عبادة الآلهة بعل وعشتروت وأدون.

الكينونة والإقتناء

أن تكون أو لا تكون.

هذا هو السؤال الذي طرحه شكسبير، وهذا ما أشرنا إليه في كلامنا على الخلق والإبداع، عند الإنسان النوعي، في الصفحة ٣٥ من كتاب العقيدة.

برأينا أن لعبة الإنسان، تتمحور حول "الكينونة" أو "الإقتناء"، أو بالأحرى حول "أن يكون" أو "أن يقتني" ولمزيد من الوضوح نستعمل التعبير بالإنكليزية، فنقول To Be أو To Have، وبالفرنسية Etre أو Avoir.

لقد بنى كارل ماركس، عقيدته على "الإقتناء" أو على ال "Avoir"، فتمحورت حوله، مجمل فلسفته الشيوعية، ووضع نظاماً جديداً للمجتمع هدف إلى تأمين معيشة المواطن عن طريق الدولة.

إن الظروف التي عايشها ماركس، كانت تفرض عليه ألا يهتم إلا بتأمين الحاجات الحياتية الضرورية، لذلك المواطن، لأن الفاقة كانت آنذاك تعمّ بلاده، والمواطن كان بالفعل "مسحوقاً" من قِبَل الطبقة الشديدة الغنى والقليلة العدد، فكان من الطبيعي جداً أن يكون هاجس المصلح الإجتماعي محصوراً بالإحتياجات المادية للإنسان.

أما في عصرنا هذا، وقد تبدّلت الأمور، وتطورت الأنظمة وإرتقى العِلم بالإنسان إلى درجات عالية جداً، فلم يعد تأمين معيشة المواطن هو الهاجس الأول، أو تنظيم حياته الإجتماعية هو المشكلة المُلحّة، أو التركيز فقط على ال Avoir كأساس، بل أصبح الأهمّ، والمُلحّ هو التركيز على ال Etre، أي على تأمين تكافؤ الفرص في المجتمع، بهدف إفساح المجال، أمام كل مواطن لإظهار موهبته، وتنميتها، ودفعه بالتالي إلى الخلق والإبداع.

وما الخلق والإبداع إلا المهمة الأساسية التي من أجلها وُجِدَ الإنسان على هذه الأرض، وأذهب أبعد من ذلك لأقول بأن الإنسان لم "ينوجد" على الأرض إلا لهكذا مهمة، وإلا أصبح رقماً من الأرقام التي تضاف إلى مجموعة المخلوقات التي

هي دونه جودة ونوعية، فيتساوى معها، مشبّهاً بذلك الحيوان في سعيه المحصور أبداً في إشباع غرائزه.

الخلق طريق إلى الإبداع، والإبداع طريق إلى التفوّق، والتفوّق هو ما خلقنا الله من أجله.

لا أقصد في كلامي هذا، أن لا مكان في الحياة للضعفاء، كما قال نيتشه، لأن الضعف ناتج عن التخلف، والتخلف مرض إجتماعي مسؤولة عنه الأنظمة في المجتمعات الحرّة التي عليها أن تؤمن تكافؤ الفرص أمام الجميع كما ذكرنا، إضافة إلى تحرير المواطن من عقدة الحاجة، والخوف والجهل (راجع الصفحة ٣٧ من العقيدة) وحضنه بروح من الإنعطاف الإنساني، بل ما أقصده هو إن الإنسان، في حال تأمنت له هذه الحقوق، أصبح من واجبه أن ينطلق في مسيرة التفوّق المرتكزة على عمليتي الخلق والإبداع، وإلا فلا مكان في هذه الحياة للكسالى، والمتخاذلين، والمترددين، والمحجمين، والمتثائبين بإستمرار، والقانعين بكل شيء، والراضين عن كل شيء.

بل أقول: أن الحياة هي للمقدام، والجسور، والبطل، والجريء والطموح، والساعي أبداً إلى التفوّق، والتعملق.

إن الإنسان المتفوّق، هو إنسان "مقتني" حكماً والعكس ليس صحيحاً، لأن "الإقتناء" هو نتيجة "الكينونة"، وال Avoir هو نتيجة ال Etre أو أحد إفرازاتها فقط، ويجب ألا يُفهم من هذا الكلام إننا نشدّد على فعل Etre للوصول إلى Avoir بل للوصول بالإنسان إلى المرتبة التي تليق به كإنسان مميّز عن سائر المخلوقات.

أيها الحارس، أن تكمّل معنا المسيرة، عليك أن تفهم لعبة "أن تكون" وتتمسّك بها، فتنطلق في رحلة المجد من أوسع أبوابه، في سكرةٍ للعقل ولا أروع، أما إذا إرتضيت بلعبة "أن تقتني"، فإننا ننصحك بالبحث عن مسيرة أخرى.

الله مالك السرمدية

قلنا في كتابنا "من عقيدة حرَّاس الأرز" الصفحة ٢٩، "إن الله يملك السرمدية" والإنسان يزامل الله في الأبدية، وقد ظلت هذه الأمور، على الرغم من أهميتها البالغة مبهمة وغامضة، حتى جاء الأستاذ سعيد عقل فحددها على هذا الشكل الرائع، فقال:

إن الأزلية تعني كل الماضي بدون بداية
والأبدية تعني كل المســـتقبل بدون نهاية
أما السرمدية فتعني الأزلية والأبدية مجتمعتين

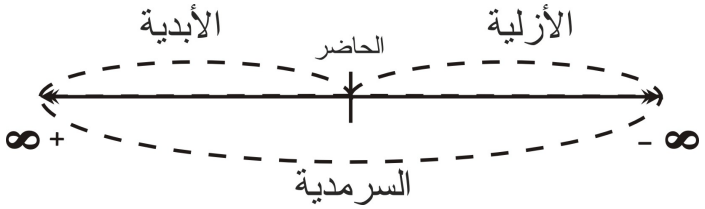

إن هذه الكلمات لا تجد لها مرادفاً في قواميس الغربيين، فهم يستعملون كلمة Enternité فقط والتي لا تستطيع أن تعبّر عن المعاني الثلاثة المذكورة آنفاً، كما وإن القاموس العربي لا يحدد بالضبط معنى هذه الكلمات، بل يخلط بينها حيناً، ويعتبر الواحدة مرادفة للأخرى حيناً آخر.

إذاً يمكننا تلخيص ما قلناه بمعادلة هندسية بسيطة:

السرمدية = الأزلية + الأبدية

الله سرمدي إذاً أبدي وأزلي.

الإنسان ليس سرمدياً ولا أزلياً لأنه لا يملك من الماضي شيئاً، بإعتبار إن الإنسان قبل أن يولد بدقائق لم يكن موجوداً بينما الله إنوجد دائماً، وأيضاً بإعتبار إن الوجود البشري على إمتداده "الطويل" عبر الزمان، يشكل صفراً قياسياً على الأزلية وذلك عملاً بالمبدأ الهندسي:

$$\frac{\text{Nombre}}{\infty} = \mathbf{0}$$

وإذا إفترضنا إن عمر البشرية هو مليون سنة، وقسّمنا هذا العمر على الزمان الماضي اللامحدود، يكون هذا العمر لا شيء أمام أزلية الله.

من هنا نقول إن تواضع الإنسان أمام الله، هو تواضع غير محدود ولا متناهٍ، لأنه تواضع الصفر أمام الكل، أو تواضع اللاشيء أمام الشيء، وتواضع العدم أمام الوجود.

أما في ما يختص بالأبدية، أي المستقبل غير المتناهي، فالإنسان بإعتقادنا يملكها كما الله، غير منقوص منها لحظة، لأن عطاء الله هو عطاء كلي، أي غير محدود وغير منقوص، وبمجرّد إنه أعطى الإنسان هذه الحياة، فقد أعطاه إياها كاملة، ونهائية.

من هذا المنطلق، أي من منطلق مزاملة الإنسان لله في الأبدية، نؤكد على عظمة الإنسان وكرامته وعنفوانه وطموحه.

وبإختصار نقول: إن الله هو مِحوَر الكون والوجود. والإنسان، مشدود بين التواضع الكبير أمام الله لعدم إمتلاكه لحظة واحدة في عمر الأزلية، وبين الإعتزاز العظيم لإمتلاكه الأبدية، بكل زمانها، مزاملة مع الله.

كم نشفق على الإنسان المُلحِد الذي لم يعط نعمة الإيمان بهذا الإله السرمدي، القابض على الزمان أزلياً وأبدياً، به يبدأ الإنسان ومعه لا ينتهي، والموت ما هو إلا بداية لحياته الأبدية.

وقلبنا معك أيها الحارس لأنك آمنت بهذه المدرسة الراسخة على الإيمان بالله، رسوخ الأرز في جبالنا المقدّسة، لذلك فإن أبواب الجحيم لن تقوى عليها.

الغيرية مِدمَاك لا بُدّ منه

"الغيرية" كلمة ضد الأنانية: الأولى لا وجود لها في القاموس العربي، بينما الثانية وجودها صارخ. أما في القاموس الأجنبي فالغيرية تعني Altruisme. وهذا يدل على إن العرب لم يستعملوا هذه الكلمة في لغتهم لأنهم لم يمارسوها، لذلك إبتدع اللبنانيون هذه الكلمة ليعبّروا من خلالها عن حالة إجتماعية، هي في صميم تراثهم النضالي المتواصل عبر الزمان.

وكثيراً ما رددنا في كتاباتنا، ومحاضراتنا هذه الكلمة، وإعتبرناها حجر الزاوية في نضالنا السياسي، والعسكري، بل الأساس الصالح لمقاومتنا اللبنانية، ولعملنا الحزبي الهادف إلى نصرة القضية اللبنانية، والوصول إلى تحقيق أهدافها السامية. ورددنا غير مَرّة إنه بدون "الغيرية" لا يمكن لأية قضية أن تنجح، ولعل السبب الأساسي في وصول اللبنانيين إلى هذا الإنهيار التام هو إعتماد السياسيين اللبنانيين خلال هذه الحقبة من تاريخنا، "الأنانية" الفردية، في كل توجهاتهم، من دون رادع من ضمير، أو حِسّ وطني، ثم أن هذه "الأنانية" الفردية إنعكست على اللبنانيين لسببين رئيسيين:

الأول: لأن نفسية المسؤول تنعكس على نفسية الجماعة.

الثاني: لأن غياب الدولة في جميع الميادين جعل المواطن يعتمد على ذاته في تدبير شؤونه العامة فنمت عنده "الروح الفردية" على حساب "الروح الجماعية" التي على أساسها تبنى الدول بمفهومها العلمي والعصري.

إن المجتمعات المتفوّقة هي المجتمعات التي حكمتها "روح العمل الجماعي" كالمجتمعات الأميركية والأوروبية وغيرها، بينما المجتمعات المتخلفة هي التي حكمتها الروح الفردية، أو الروح العشائرية كما نسمّيها في قاموسنا السياسي، ومن بين هذه المجتمعات، المجتمع اللبناني. كما وإن تفوّق الفرد اللبناني على الفرد في المجتمعات الأخرى، يعود إلى الأسباب التي ذكرناها أعلاه، إضافة إلى التراث الهائل الذي يحمله الفرد اللبناني، والذي توارثه من جيل إلى جيل بشكل لا شعوري.

إن المبادرة الفردية بما فيها من "غيرية" لا من "أنانية" عند اللبناني هي من أبرز صفاته، وقد ساهمت إلى حَدّ كبير في ترسيخ الوجود اللبناني عبر التاريخ وأمّنت إستمراره.

إن تاريخنا الطويل لم يفرز حكاماً عظماء، أو رجال دولة إلا نادراً، بينما أفرز أفراداً برزوا في شتى الميادين، وأبدعوا في شتى الحقول، فطغى إسمهم على الملوك، والقادة، والحكام، وطبعوا عصرهم بطابعهم الخاص.

إن أحد أهدافنا العظيمة في حزب حرَّاس الأرز ــ حركة القومية اللبنانية ــ هو في ترويض هذه الطاقة الفردية الهائلة عند الإنسان اللبناني، وصهرها في الطاقة الجماعية العامة، فتتفاعل من ضمنها لا من خارجها، وبشكل تكاملي وتناغمي، يؤمن النهوض بالدولة اللبنانية من المفهوم العشائري إلى المفهوم المجتمعي.

أيها الحارس، تحلَّ بالغيرية في كل تصرفاتك الخاصة والعامة لأنها مدماك من مداميك عقيدتك الخالدة.

إخصاب الزمان

الكهل هو إنسان مُسِنّ، والشاب هو إنسان في مقتبل العمر. هذا هو العُرف، وهذه هي سُنّة الطبيعة.

أما مدرسة حرَّاس الأرز فالأمر يختلف أحياناً، فنحن نقول أن الكهل يمكن أن يكون شاباً وهو في السبعين من عمره، والشاب يمكن أن يكون كهلاً مترهّلاً وهو في العشرين، لأن مقياس العمر في نظرنا ليس في عدد السنين، بقدر ما هو في إمكانية العطاء المتواصل، والقدرة على التحرّك بإستمرار، نحو الأفضل والأسمى.

إن الإنسان مركّب من عقل وجسد، العقل يفكّر والجسد ينفّذ. فعندما يصل الإنسان بعقله إلى فكرة معيّنة قابلة للتنفيذ، صالحة وقادرة على خدمة الوطن، وتطوير المجتمع، عليه أن يبادر فوراً إلى تنفيذ هذه الفكرة، وتجسيدها عملاً واقعاً وملموساً، وكلما تأخّر عن التنفيذ كان كهلاً، حتى ولو بدا في ريعان الشباب.

نحن نقول بوجود مسافة زمنيّة بين العقل المعدّ للتفكير واليد المعدّة للتنفيذ، فكلما بعدت المسافة بين العقل واليد كان الإنسان كهلاً، وكلما قربت كان شاباً وذلك بصرف النظر عن عمره الزمني.

إنها معادلة أساسية في عقيدتنا، ومبدأ جوهري في تفكيرنا، نعول عليه كثيراً لبلوغ الأهداف الكبيرة التي نسعى إليها.

إن الإنسان الذي بلغت المسافة بين عقله ويده عدّة كيلومترات، هو الإنسان "الكهل" الذي لا مكان له في عدادنا، أما الإنسان الذي قصرت المسافة بين عقله ويده إلى بضع سنتمترات، فهو الإنسان "الشاب" الذي نرحّب به وندفعه إلى تبوّؤ أعلى المراكز.

إن حارس الأرز هو الإنسان الذي "يشرقط"، أي الإنسان المتحرّك بإستمرار سعياً لبلوغ أهدافه السامية.

وبتعبير آخر، إن حارس الأرز هو ذلك الإنسان النوعي الذي يخصّب الزمان.

رسالة إلى "غارسيّا"

من الأهداف الرائدة التي نسعى إليها، تهذيب شخصية المواطن وتدريبه على تحمّل أية مسؤولية توكل إليه مهما كانت صعبة وشاقة، وذلك من دون أي تهرّب أو تردد أو تذمّر.

إن الإنسان المتردد أمام تحمّل المسؤولية، الكثير الأعذار والحجج، هو إنسان تافه وعادي، يحجم لا يقدم، وبالتالي لا يمكنه أن يكون بين صفوفنا، أو على الأقل في موقع المسؤولية.

ومثال على ذلك، يحكى عن ملك يوناني إمتلأ غضباً عندما لم يجد أحداً من معاونيه قادراً على إيصال رسالة عاجلة إلى "غارسيّا" حاكم إحدى الجزر اليونانية والتي كان قد حاصرها الأسطول التركي حصاراً محكماً منذ عدّة شهور.

وبما إن سقوط هذه الجزيرة، أو إنتصارها، يتعلقان بمضمون هذه الرسالة، إشتدّ غضب الملك حتى سمع به كل من في البلاط، وما أن وصل الخبر إلى أحد أفراد الحرس الملكي، وهو ضابط في مقتبل العمر، حتى إندفع إلى غرفة الملك طالباً مقابلته، فمنعته الحاشية لأنه رفض الإفصاح عن سبب المقابلة، خصوصاً وأن رتبته العسكرية الصغيرة لا تسمح له بذلك، ولكنه أصرّ بإلحاح، وهم رفضوا بشدّة، فعلا الصراخ حتى وصل إلى مسمع الملك، فطلب مقابلة الشاب، فتقدّم هذا الأخير قائلاً: سمعت إنك غاضب فجئت لأرفع عنك هذا الغضب مهما كان سببه، لأنني أشعر يا جلالة الملك، بخجل كبير أن أكون في عداد رجالك، بينما أنت على هذه الحالة من الغضب الشديد منذ عدّة أيام، فدهش الملك لهذا الكلام، وأجابه على الفور: خُذ هذه الرسالة وسلمها إلى "غارسيا". فإنتزع الضابط الشاب الرسالة من يد الملك وخرج مسرعاً من دون أن يلفظ كلمة واحدة.

وأمام دهشة الموجودين من كبار الضباط والمعاونين، تقدّم قائد الجيش من الملك وقال مستغرباً: كيف تسلم، يا جلالة الملك، هذه الرسالة الخطيرة إلى هذا الضابط وهو لا يعرف شيئاً عن حصار الجزيرة، ولا يملك أية وسيلة لخرقه، ولا يعرف حتى إسم هذه الجزيرة، ولا موقعها، ولا حتى إسم الحاكم غارسيا، ثم إنه لم يطرح على أحد منا أي سؤال يتعلق بهذه التفاصيل أو لم يستفسر شيئاً عن طبيعة مهمته، فأجاب الملك، وقد إنفرجت أساريره: لأن هذا الشاب أبى أن يزعجني بأي

سؤال كما تعوّدتم أن تفعلوا، أؤكد لكم أنه سيتمكن حتماً من إيصال الرسالة إلى "غارسيا"...

وبعد مدّة غير طويلة، فك الطوق عن الجزيرة، وعمّ الفرح كل أرجاء المملكة، وراح الناس يتناقلون بإعجاب أخبار ذلك الضابط الشاب حتى أصبح أسطورة في النخوة والإقدام.

إن حارس الأرز هو ذلك الفارس المقدام الذي يعرف كيف يوصل الرسالة إلى "غارسيا".

النزوح نحو المثالية

في كل إجتماع ومناسبة، تتركز توجيهاتنا إلى محازبينا، على وجوب النزوع نحو المثالية في كل عمل يقومون به، والتوق إلى الكمال في كل تصرّف من تصرّفاتهم.

ولا شك في أن بلوغ المثالية هو أمر مستحيل، والكمال محصور بالقديسين، ولكن ما ذنبنا إذا كنا من عشّاق المستحيل ونهوى الصعب من الأمور؟

لقد كثرت مقولاتنا حول هذا الموضوع: "عينك إبقها على أول نقطة داخل المستحيل" وهذا شعار أطلقناه في خضمّ الحرب.

أو "لازم تعوّد نفسك ع الأشيا الصعبي، والأشيا الهيني خليها لغيرك"، الوصية السادسة من الوصايا العشر.

على كل حال إن السير في طريق المثالية عمل شاقّ ومشوّق في الوقت ذاته، وهو يتمّ على مرحلتين.

يبدأ في المرحلة الأولى عندما يأخذ الإنسان القرار بينه وبين نفسه، فيغوص في أعماق أعماقه، يبحث فيها عن نقاط الضعف وينقب عن مواضع الخلل، فيضع يده على مكامن العلل، ويكون بذلك قد إجتاز نصف الطريق إلى التغلب عليها والتخلص منها.

علماً إن عملية التفاهم مع الذات، والإقرار بالنقص بين الإنسان ونفسه مسألة في غاية الصعوبة، تقتضيها شجاعة غير عاديّة، لأن الإنسان أشدّ ما يخشى هي ذاته، فإذا تغلّب عليها. تغلب على العالم بإعتبار أنّ مكامن القوّة والضّعف موجودةٌ داخل الإنسان وليس في خارجه. لذلك قالوا ليس هناك إنسان يخيف ولكن هناك إنسان يخاف.

وفي المرحلة الثانية يباشر الإنسان عملية التغلب على الأمراض التي يكون قد إكتشفها، وهي تتطلب منه جهداً كبيراً وممارسة متواصلة ويومية، يتخللها نزاع داخلي ناجم عن رفض النفس التخلي عن صفات تكون قد تعوّدت عليها طويلاً.

وبقدر ما يتخلى الإنسان عن عاداته السيئة، ويشفي نفسه من أمراضها كالخوف والتجابن والتردد، والتصاغر، والكذب، والكسل، والبخل، والحقد، فيبدّلها بمثل عليا كالشجاعة والبطولة، والإقدام، والطموح، والصدق، والكرم والتسامح، والدّيناميكية، بقدر ذلك يتوصّل هذا الإنسان إلى السّيطرة على نفسه سيطرة تامّة ويبدأ بالنزوح نحو المثالية، هذه المثالية التي نطلبها من كل محازب إختار الإنتساب إلى مدرسة حرَّاس الأرز.

إن ريادة المستحيل هي جوهر العقيدة في حزبنا، هذا الحزب الذي تمخّض في العذاب، وولد في المعاناة ونشأ بإمكانات وظروف مستحيلة، فكان مغامرة في قلب المستحيل.

إن حرَّاس الأرز يحلمون أن يأتي يوم لا يبقى في صفوفهم سوى المتفوقين من الرجال.

السير عكس التيار

سألني يوماً أحد الصحافيين أن ألخِّص له بكلمة موجزة مبادىء حرَّاس الأرز، فأجبته بأن هذه المبادىء هي تماماً عكس ما قيل وأذيع ونشر في وسائل الإعلام اللبنانية والعربية خلال الأربعين سنة الماضية.

إن هذا الكلام قد يصدم سامعيه لأول وهلة، ويحملهم ربما على الإعتقاد بأنه أمر مبالغ فيه.

ولكن إذا عدنا إلى الوراء وقارنّا بين ما جرى ويجري على الساحة اللبنانية منذ العام ١٩٤٣ وحتى اليوم، مروراً بحرب السنوات الثماني، ووصولاً إلى العملية العسكرية الإسرائيلية في ٦ حزيران عام ١٩٨٢، يتأكد لنا ما يلي:

أولاً: قالوا إننا عرب، وإن الشعب اللبناني عربي الإنتماء، وهو جزء مما يسمّى الأمة العربية التي حدودها من المحيط إلى الخليج، وإننا نتكلم اللغة العربية، وإن لا حدود طبيعية تفصل لبنان عن محيطه العربي...

الحقيقة إن هذا لاكلام خطأ جملة وتفصيلا، ليس لأنه مخالف للواقع والحقيقة فحسب، بل لأنه أيضاً مخالف لمعطيات الجغرافية والتاريخ بإعتبار أنَّه المرجع الأوّل والأخير والحُكم (بفتح الكاف) النهائي في هذه الأمور، ولنا على ذلك أكثر من دليل

١- لم يتكلم التاريخ مَرَّة عن أمّة عربية واحدة من المحيط إلى الخليج، لأن بين المحيط والخليج أمماً مختلفة، وشعوباً متناقضة، وحضارات متعددة، وإتنيات متنوعة عمرها آلاف السنين، فلا يمكننا في حال من الأحوال أن نجمع كل هذه الأمم المتناقضة، وأن نصهرها في بوتقة واحدة ونعمل منها أمة واحدة موحّدة بشحطة قلم، أو بهَوَس عاطفي على طريقة "أحمد سعيد".

أما العرب فهم شعب قديم، وجد ولا يزال في شبه الجزيرة العربية، ولم يخرج منها إلا خلال الفتوحات التي قام بها مع الدعوة الدينية الجديدة، ولم يلبث أن عاد وتقوقع فيها، تاركاً وراءه المذهب الجديد الذي تبنّته بعض دول وشعوب المناطق التي فتحها.

٢- إننا في الواقع لا نتكلم اللغة العربية كما يتصور الكثيرون، بل اللغة اللبنانية التي يسميها البعض "اللغة العامية" أو "المحكية"، وهي تطوير للغة السريانية ــ الآرامية الأصل ــ وبإعتبار إن هذه اللغة قريبة جداً من اللغة العربية، وبما أننا نجهلها، فقد توهمنا إن لغتنا الأم هي العربية.

إن اللغة المكتوبة في لبنان اليوم هي اللغة العربية أي الفصحة، وهي التي أوجدت هذه الإزدواجية عند اللبنانيين، أي أن اللبناني الذي يتكلم اللغة اللبنانية ويستعملها في كل مجالاته، مضطر في مجال الكتابة أن يستعمل لغة أخرى هي اللغة العربية. بينما شعوب العالم تتكلم وتكتب لغة واحدة، مما ساهم كثيراً في النهضات الفكرية عندها، وأزال من أمامها هذه الإزدواجية التي نعاني منها في لبنان وفي هذا الشرق المتخلف.

٣- أما القول بأن لا حدود طبيعية تفصلنا عن "العالم العربي"، فهو هراء وكلام فارغ، إذ يكفي أن ننظر إلى الجغرافية اللبنانية كي نرى كيف إن العناية الإلهية قد أوجدت لنا سلسلتين من الجبال ممتدّتين دون إنقطاع من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب وعازلتين لبنان كلياً عن الصحراء العربية، أضف إلى ذلك كون هاتين السلسلتين متوازيتين مع البحر، وقد حدّدتا وجه لبنان الملتفت أبداً إلى البحر، وظهره المدار أبداً إلى الصحراء.

٤- أما الشعب اللبناني فهو متواصل الوجود منذ أقدم العصور ضمن حدود الجغرافية المعروفة، وقد شكل مع الأيام أمة واضحة المعالم والمقومات والخصائص هي الأمة اللبنانية التي لها تاريخها وتراثها وعاداتها وتقاليدها الخاصة والمميزة.

ثانيا: قالوا إن سوريا هي شقيقة لبنان، وإنها التوأم، وإن مصيراً مشتركاً يربط البلدين، وإن أمن لبنان من أمن سوريا، إلى آخر المعزوفة... ولكن إستناداً إلى الواقع والتاريخ يتبين بوضوح:

١- إن سوريا هي عدوّة لبنان التاريخية والتقليدية، فالمصائب التي حلت به عبر الأزمان من غزوات وحروب ومحاولات تسلط وهيمنة كانت تأتي من سوريا، ناهيك عن الحلم التاريخي عند السوريين بإبتلاع لبنان، وضمّه إلى ما يسمّونه "القطر الشقيق" وإمتناعهم الدائم والمستمرّ عن إقامة علاقات ديبلوماسية معه.

٢- إن علم السياسة يقول: إن الدول المتاخمة الحدود هي دائماً دول عدوّة، وهذا ما ينطبق على واقع الحال بين سوريا والعراق، روسيا والصين، تركيا واليونان... إلخ..

وهذا المبدأ ينطبق على لبنان وسوريا، وقد أثبتت الحرب الأخيرة صحة هذا الكلام، وخطأ السياسيين القصيري النظر، الذين راهنوا على المبادرة السورية عام ٧٦ لإنهاء الأزمة اللبنانية.

ونحن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن الفلسطينيين هم خطر ظرفي على لبنان ينتهي بإنتهاء طردهم من أرضنا وتوطينهم في مكان ما من "العالم العربي" أو خارجه، بينما السوريون هم خطر دائم ومستمر طالما إنهم موجودون على حدودنا. من هنا مطالبتنا الملحّة بضبط الحدود مع سوريا ومراقبتها على مدار الساعة بشكل فعّال لخرقها أو إنتهاكها من قِبَل السوريين.

٣- أما نغمة أمن لبنان من أمن سوريا، فهي الديماغوجية بعينها لأن الحقيقة هي أن قوّة لبنان من ضعف سوريا، وضعف لبنان من قوّة سوريا لذلك ولكي نأمن شرها وخطرها الداهم علينا، ولكي نؤمن لأجيالنا إستمرارية البقاء بأمن وحرية، علينا أن نعمل دائماً على إضعاف سوريا والسعي إلى تقسيمها تماماً كما حاولت أن تفعل بنا وعلى مَرّ التاريخ وطيلة سنوات الحرب الأخيرة.

ثالثاً: قالوا أن "القضية الفلسطينية" هي قضيتنا، لا بل "قضيتنا المقدّسة" أو هي "قضية العرب الكبرى"، وهي مترابطة "عضوياً" بالقضية اللبنانية، ولا حل لهذه الأخيرة إلا بحل "القضية الفلسطينية".

١- أما نحن فقد قلنا دائماً إن "قضية الفلسطينيين" تخصّهم وحدهم ولا دخل لنا فيها، هذا إذا كان للفلسطينيين من "قضية"، وإنها بالنسبة إلينا لا تمتّ إلى القداسة بصِلة، إذ أن الممارسات الفلسطينية في لبنان وخارجه أثبتت عهر هذه القضية.

٢- لم تكن يوماً قضية الفلسطينيين "قضية العرب الكبرى" بقدر ما كانت متاجرة عربية حاول كل نظام عربي أن يستغلها لمآربه الخاصة، بينما كلهم تهرب من إيواء الفلسطينيين على أرضه، وعمل ما لا يعمل لإبقائهم في لبنان عن طريق مدّهم بالمال والسلاح.

٣- أما الكلام عن "الإرتباط العضوي" فهو نفاق سياسي، لا بل عهر سياسي، لأن قضية لبنان لا دخل لها بأية قضية أخرى في العالم، ولا حل للقضية اللبنانية إلا بفصلها تماماً ونهائياً عن كل القضايا الأخرى.

رابعاً: قالوا إن إسرائيل هي عدوّة لبنان، وقد أنشأنا في لبنان جيلاً كاملاً مبنياً على هذه القناعة، بينما التاريخ والواقع أثبتا إن إسرائيل هي صديقة لبنان، حيث قامت بين الدولتين وبين الشعبين اللبناني والإسرائيلي ومنذ أقدم العصور علاقات متنوّعة من حضارية وسياسية وعسكرية وإجتماعية وغيرها.

وقد جاءت هذه الحرب لتثبت صحة هذا الكلام بشكل لا يقبل الجدل، فعندما تخلت عن لبنان كل دول العالم، الشرقية منها والغربية، لم نجد حليفاً لنا سوى إسرائيل

التي أمدتنا بالسلاح والعتاد والتدريب وأخيراً بالتدخل العسكري المباشر الذي لولاه لكان لبنان اليوم مهدداً بخطر الزوال.

إن مقولة "أمن لبنان من أمن سوريا" يجب أن تصحح لتصبح "أمن لبنان من أمن إسرائيل، فكلما قويت إسرائيل قوي لبنان، وكلما ضعفت ضعف لبنان".

هذا بعض مما قالوه، ومما ننقضه، لا رغبة في النقض، ولكن سعياً وراء الحقيقة التي قررنا أن ندافع عنها تماماً كما ندافع عن لبنان، لأن لبنان والحقيقة توأمان.

إن الغاية من إظهار هذه الحقائق هي أيضاً بناء ذاتنا المستقلة وترسيخ هويتنا القومية ومتابعة مسارنا التاريخي بإيجابية مطلقة وموضوعية راسخة وتفكير علمي سليم.

من أجل أمة متعلمة ومثقفين نوعيين

إن الثورة التي لا بُدّ أن تنهج الأمة اللبنانية سبيلها يجب أن تأخذ طابعاً كليّاً وشمولياً وأن تنحو منحىً جذرياً، يتغلغل إلى أعماق الشخصيّة اللبنانية التاريخية ويهزها في أصلها الحضاري الذي تمايزت به في هذه المنطقة من العالم. ولعلّ مصاحبة اللبناني للحرف هي من أبرز السمات التي طبعت كيانه. من هنا لا ننظر إلى إختراع الأبجدية ونشرها في العالم نظرة إنفعالية ومباهاة تراثية، بل ننظر إليها كنمط مستمر من أنماط فاعليتنا العالمية ومساهمتنا في إنقاذ العقل البشري من وحشيّته أو غرائزيّته إلى مدنيّته ومنطقه لأن العقل هو المنطق وهو القدرة على التحليل، والرغبة في التغيير، والسعي إلى التطوير، وهو كذلك المدنيّة، أي تطوير نمط العيش، من الإطار البدوي، والرعوي، والترحلي، إلى المؤسسة المجتمعيّة، المتعاونة، والمتشاركة، والمتآزرة.

ومن هنا أيضاً لا ننظر إلى نظريّة موخوس في الدّرة، وإلى ممارسة الديمقراطية في صيدا، وتفجر العقل الفلسفي اللبناني في المدن اليونانية وإلى صروح الحقوق في بيروت، وإلى إرتقاء الفقه في بعلبك وإلى منابر المسائل الشرقية في أوروبا، لا ننظر إليها كتراث منفصل عن حاضرنا، بل هي بنى متداخلة عضوياً في التاريخ اللبناني، تؤلف معاً هوية العقل والمدنية اللبنانية، وتشكل عنصراً بارزاً من عناصر قوميتنا.

فهل يحق للبنان أن يتخلى مرّة عن هذه الذات الفكرية، وهل يحق للدولة اللبنانية مهما يكن نظام حكمها، أن لا ترعى هذا التراث اللبناني العظيم؟

وإذا نظرنا اليوم حولنا ماذا نجد؟

١- إن الأمية ما تزال تتحكم بفئة غير قليلة من اللبنانيين تتجاوز ال ٢٠ ٪ من أفراد شعبنا أي على كل مئة لبناني هناك عشرون عقلاً مغلقاً ومعطلاً عن الحركة الفاعلة.

٢- أنّ ما لا يقلّ عن خُمس الأمة ما يزال جاهلاً كمن يعيش خارج الزمان.

٣- إن هذا الخمس الجاهل هو العامل في الزراعة وفي الحرَف اليدوية وفي الجيش أو عاطل عن العمل.

أما المتعلمون فقسمان، قسم يحسب حساباً كمّياً على الثقافة وقسم آخر يُحسب حساباً نوعياً عليها، ومما لا شَكّ فيه إن أبناء الكميّة هم الفئة الغالبة.

في ضوء ذلك لا بُدّ من حملة قوميّة تبادر فوراً إلى:

١- إحصاءٍ دقيق للأميين وتحديد وظائفهم القومية الراهنة.

٢- إحصاءٍ دقيق لأرباع المتعلمين وإنصافهم ومعرفة ميادين عملهم.

٣- إحصاءٍ دقيق لذوي الإختصاص ومعرفة توزعهم القومي.

وفي ضوء ذلك نسارع أيضاً إلى:

١- وضع برامج لمحو الأميّة وتنفيذها في غضون أشهر.

٢- البحث عن وسائل دفع التعلم والثقافة ليستمر لبنان في مواكبة ذاته التاريخية.

٣- تطوير أنظمة التعليم في لبنان بحثاً عمّا يلائم مجتمعنا ويتناسب مع مميزاتنا القومية.

٤- إيقاف الجدل القائم بين مؤسسات التعليم الخاص والتعليم الرسمي والحفاظ على الأمثل منهما من ضمن إيجابية قومية لا مجرّد القبول والرفض مسايرة لهذا المطلب أو ذاك.

إن محو الأمية، وتعميق الثقافة، وتحديث برامج التعليم، وتطوير المناهج والطرائق، لا يمكن أن تحصل إلا من ضمن حملة قومية شاملة. تأخذ بعين الإعتبار مصالح قطاعات العمل الشعبي في مستوياتها المختلفة، وتعبئة موارد إضافية لتمويل عمليات التعليم، في إطار سياسة قومية تهدف إلى مجانية التعليم وعدم الوقوع في الإنتقائية إي جعل التعليم الكمّي وقفاً على فئة والتعليم النوعي وقفاً على فئة أخرى كما هو مبين اليوم في فارق التعلم بين المدارس الرسمية والمدارس الخاصة.

الإنتشار المبعثر والقدرات المهدورة

نشدد دائماً في عقيدتنا على الإنتشار اللبناني في العالم، وعلى أهميّته القصوى، في تركيز دعائم الوطن الأم، ونشر الرسالة اللبنانية العظيمة، القائمة على المحبّة، والمعرفة، والحرية، بين جميع الأمم.

إلا أن هذا الإنتشار اللبناني الكبير والذي ندعوه في كتاباتنا "العالم اللبناني" مشتت الأوصال ومبعثر القوى مما يجعله غير وثيق الإرتباط بالوطن الأم بل وعديم الفائدة إلى حَدٍ بعيد.

إن ما لاحظناه في جولاتنا الأخيرة على عالم الإغتراب هو أن الجاليات اللبنانية الكبيرة هناك قد ذابت بمعظمها في البلاد المضيفة وإنصهرت فيها إنصهاراً تاماً، لدرجة أنها فقدت بذلك، الشعور الوطني الذي يربطها بلبنان، وحنين العودة إليه، والإندفاع إلى العمل، والتحرّك لدعم القضية اللبنانية في الأزمات والمحن.

كلنا يعرف إن عدداً كبيراً من أفراد جاليتنا اللبنانية، قد تفوّق في جميع المجالات، ومنهم من تبوأ أعلى المراكز في كل الميادين، ولكن، وبكل أسف، معظمهم يكاد لا يذكر لبنان ولا يكترث له بل منهم من حرّف إسمه، لكي يقطع آخر معالم إرتباطه بالوطن الأم.

إلتقيت في جولاتي الأخيرة بالعديد من هؤلاء الأشخاص، وتبيّن لي أن بينهم من يعتقد إنه سوري الهوية، أو عربي الإنتماء، ومنهم من لا يعرف شيئاً عن القضية اللبنانية، ولا حتى عن الحرب الحاليّة، بل منهم من يعتقد إن هذه الحرب قد بدأت فقط مع دخول القوّات الإسرائيلية إلى لبنان عام ١٩٨٢.

من هنا نلاحظ إهمال الدولة على إمتداد العهود الماضية، وتقصيرها المجرم في هذا المجال الحيوي، كما في بقية المجالات، الأمر الذي جعل جالياتنا اللبنانية في الخارج، على صورة هذه الدولة اللبنانية ومثالها.

أما مقترحاتنا العملية لمعالجة هذا الموضوع الخطير فتتلخص بما يلي:

١- تغيير معظم سفرائنا في الخارج، وإبدالهم بسفراء جدد ممن آمنوا بالقضية اللبنانية المقدّسة، وعملوا لها خصوصاً خلال هذه الحرب.

٢- إجراء مسح شامل، ودقيق، لأفراد جالياتنا في الخارج، بعد التفتيش عنهم، والتنقيب عن الذين حرّفوا أسماءهم.

٣- إنشاء وزارة خاصة بالعالم اللبناني، تهتم بشؤون الجاليات اللبنانية، فتنشأ دائرة خاصة بالمحفوظات، تنظم فيها ملفات فردية لكل مغترب، وتحتوي على كافة المعلومات عن شخصه، وعن عائلته ونشاطاته.

٤- إرسال بعثات لبنانية رسمية إلى الخارج تتصل بالمغتربين وتشرح لهم تاريخ لبنان وتراثه العظيم الأمر الذي يجعلهم يتعلقون به ويفتخرون بإنتمائهم إليه، وبعد ذلك تبادر هذه البعثات إلى شرح حقيقة الأزمة وواقع القضيّة اللبنانية محددة أهدافها وتطلعاتها.

٥- تنظيم هذه الجاليات ضمن كادرات معيّنة، بغية تسهيل الإتصال بها وتحريكها في الوقت المناسب وبالسرعة المناسبة.

٦- تسهيل معاملات إستعادة الجنسيّة اللبنانية للمغتربين.

٧- تشجيع عودتهم، عن طريق تنظيم رحلات متواصلة إلى الوطن الأم، مما يبعث فيهم حنين العودة، وكذلك عن طريق فتح شتى مجالات العمل لهم.

إن هذه المقترحات ما هي إلا الخطوط العريضة لإنشاء "الدياسبورا" اللبنانية في العالم، ونحن على يقين إننا إذا توصّلنا يوماً إلى تنظيم جالياتنا اللبنانية في الخارج، تنظيماً صحيحاً، على النّحو الذي ذكرنا، لا يعود لبنان بعد ذلك كما هو اليوم، لقمة سائغة في فم أعدائه، أو مكسر عصا لكلّ من شاء أن يطمع به أو يعتدي عليه.

مصادرة الأدمغة اللبنانية واجب قومي

إن الإنتشار اللبناني يزخر بالشباب المتفوّق في شتى المجالات، خصوصاً العلمية منها، فإذا أجرينا مسحاً للعلماء اللبنانيين، أو المتحدّرين من أصل لبنانيّ، نجد إن المختبرات العلميّة ومراكز الأبحاث المنتشرة في جميع أنحاء العالم المتمدّن، تعجّ بهؤلاء اللبنانيين الذين ساهموا ويساهمون في دفع العلم والحضارة والتكنولوجيا إلى أسمى درجاتها، ويشاركون في هذه الإكتشافات العلميّة المذهلة التي مكّنت للإنسان الإنتقال من جاذبيّة الأرض إلى عالم الأفلاك، والتنقل بين الكواكب، محققاً طموح الإنسانية وحلم الشعراء.

إن حرَّاس الأرز قد تناولوا هذا الموضوع في المادّة ١٥ من كتيّب "لبنان الجديد كما يراه حرَّاس الأرز"، وفي الحقيقة الثالثة عشرة من الحقائق ال١٤، حيث طالبوا بتخصيص ميزانية كبيرة لإنشاء مراكز أبحاث ومختبرات علمية في شتى أنحاء المناطق اللبنانية، و"مصادرة" الأدمغة اللبنانية المنتشرة في العالم ودفعها إلى العمل في هذه المراكز والمختبرات. وقد يتبادر إلى أذهان البعض أن هذا الكلام فيه نوع من المغالاة، أو هو أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع.

١- إن الخيال هو الصفة الأولى التي يجب أن يتمتع بها رَجُل الدولة، هذا إذا كان في نيته بناء دولة كبيرة وطموحة، علماً إن إحدى مصائب لبنان الكبرى هي في أن حكامه كانوا دائماً، وما يزالون يتميّزون بنضوب الخيال عندهم، وهنا لا بُدّ من التذكير بما قلناه سابقاً: إنّ الدّول الكبيرة تصنعها الأحلام الكبيرة.

٢- مِنَ الناس مَنْ يشكّ في قدرتنا على تخصيص هذه الميزانية الضخمة لإقامة هذه المختبرات، ولكن إذا ضبطنا وبشكل سليم، الجباية، وطبّقنا بشكل صحيح، الضريبة التصاعدية على جميع المؤسسات، وتخلصنا من عبء آلاف الموظفين الرسميين، المتطفلين على الإدارة، نستطيع عندئذٍ أن نحقق هذا الحلم بأسهل مما يتصوّره هؤلاء المشككون.

٣- إن موقع لبنان الطبيعي والجغرافي بالإضافة إلى مناخه الفريد، يتيحان لمراكز البحوث المقامة على أرضه العمل ٢٤ ساعة في اليوم و١٢ شهراً في السنة دون توقف، وهذا أمرٌ فريد من نوعه في العالم.

وبقي علينا أن نذكّر بأنّ رقيّ الدّول يقاس بعدد المختبرات العلميّة على أرضها، وأن نعلم أن إنتقال لبنان من حالة الضعف والإستضعاف التي يتخبّط فيها اليوم، إلى حالة القوّة والإستقواء لا يتمّ إلا بقرارات إستثنائيّة تحمل هذا القدر من الطموح، والخَيَال، وتحدّي الذات.

مقوّمات بقاء الدول الصغيرة: فنّ يجهله حكامنا

إن قدر الدول الصغيرة أن تبقى دائماً في حالة من الإستعداد لمواجهة خطر إبتلاعها من قِبَل الدول الكبيرة، ويزداد هذا الخطر، كلما كانت حدود الدولة الصغيرة متاخمة لحدود دولة كبيرة، ويتضاعف الخطر إذا كانت الدولة الصغيرة محاطة بدول كبيرة ومتخلفة كما هي الحال بالنسبة إلى لبنان.

لذلك، على الدول الصغيرة أن تدرك هذا الخطر الذي يتهددها بإستمرار، وتعي هذا القدر المحتم عليها، فتعمل على أساسه لتحصّن وجودها وتؤمِّن إستمرارية بقائها.

إن الشرط الأساسي لإستمرارية بقاء الدولة الصغيرة هو أن تلعب دوراً كبيراً بين الدول.

إن إستمرارية بقاء الدول الصغيرة مرتبط إلى حَدٍّ كبير بطموحها، فإن هي بادرت إلى لعب أدوار كبيرة في شتى المجالات، الحضارية والعسكرية والإجتماعية والسياسية والعلمية، فإنها تعوّض بها عن صُغر حجمها، فتنافس الدول الكبيرة الحجم وتكون قد أمَّنت هدف وجودها.

إن هذا الشرط لا ينطبق على الدول الكبيرة لأن حجمها الجغرافي والبشري كفيل بأن يؤمِّن لها إستمرارية الوجود كما هي الحال بالنسبة إلى الصين مثلاً، التي يناهز عدد سكانها اليوم المليار نسمة، ولا نعتقد أنّ أحداً يمكنه أن يتجاهل وجود هذا الرقم الهائل من البشر، حتى لو تمنَّعت الصين عن لعب دور كبير.

وقد يكون المثل القائل: إن السمكة الكبيرة تأكل الصغيرة، خير مثال على الواقع الذي أشرنا إليه، وكم من دولة صغيرة وجدت في مرحلة من مراحل التاريخ ولم تلبث أن إندثرت أو إنقرضت بسبب أطماع الدول الكبيرة المحيطة بها، أو بسبب غطرسة حكامها وجشعهم.

فهل كتب إذاً على الدول الصغيرة اليأس والقنوط والإستسلام لمشيئة القدر المحتوم وبالتالي الزوال المؤكد؟

إن الطبيعة التي تسوسها سنّة تنازع البقاء وتتحكم بها شريعة الغاب تجيب بالنفي، وتبعث في نفوس الصغار الأمل في البقاء، وتحثهم على العمل بقوّة وحنكة وذكاء.

ففي البحار أنواع من السّمك الصغير إستطاعت تأمين بقائها عن طريق تحصين نفسها بوسائل مختلفة، فتصمد في وجه السّمك الكبير وتمتنع عليه.

أما المقوّمات الأساسية لبقاء الدول الصغيرة فهي:

أولاً: على الصعيد السياسي:

إن الدول الصغيرة يجب أن تبني سياستها العامة على المرتكزات التالية:

١- **الطموح:** وهذا يعني أن تعمل الدولة الصغيرة لتكون فاعلة في تقرير سياسة المنطقة التي تتواجد فيها بل عليها أكثر من ذلك، أن تعمل لتكون لها كلمة في تقرير سياسة العالم.

وهذا يعني ألا تكون مجرّد دولة تابعة لغيرها من الدول أو مفعولاً بها كما هو الوضع اليوم في لبنان.

٢-**العنفوان:** وهذا يعني أن تتعامل الدولة الصغيرة مع كافة الدول وبالأخصّ الكبيرة منها تعامل النّد للنّد، وتعامل الكرامة والإحترام المتبادل، فتواجه التحدّي من أيّة جهّة أتى، وهذا بالضبط ما فعلته إسرائيل أخيراً في مواجهة نقمة الولايات المتحدة الأميركية بعد ضَمّ الجولان.

إذاً على الدول الصغيرة أن تشفى تماماً من عقد النقص والضعف والخوف تجاه الدول الكبيرة، أي العقد التي ما يزال حكام لبنان يعانون منها منذ أكثر من أربعين سنة.

٣- **العلاقات الدولية:** إن العلاقات المبنية فقط على تبادل السّفراء، والتمثيل الديبلوماسيّ والبروتوكولي هي علاقات سطحيّة وواهية، تبقى عرضة للإنتكاس في أيّة لحظة.

وإن مثل هذه العلاقات لا تلزم الدول الكبرى بمساعدة الدولة الصغيرة ولا تصل بها النخوة إلى حَدّ تعريض مصالحها من أجل الدفاع عنها.

وإنطلاقاً من المبدأ السياسي البديهي القائل: إن لا عواطف في العلاقات بين الدول، ولا صداقات دائمة بينها، بل مصالح مستمرّة، فإن على الدولة الصغيرة أن

تربط الدول الكبيرة بمصالح حيويّة معيّنة على الصعيد الستراتيجي أو الإقتصادي أو الثقافي في شكل تشعر فيه الدولة الكبيرة إن مصالحها الخاصّة مهددة مباشرة عندما تتعرّض صديقتها الصغيرة للخطر. وبقدر ما تنجح الدولة الصغيرة في هذا المجال، بقدر ما تكون مطمئنّة إلى أنّ الدول الكبيرة ستهبّ لنجدتها عندما تدعو الحاجة وذلك ليس دفاعاً عن هذه الدولة الصغيرة بقدر ما هو دفاع عن مصالح الدول الكبيرة في الدول الصغيرة.

ثانياً: على الصعيد العسكري:

بكل أسف وبإعتبار إن الحقّ لا تحميه إلا القوّة، "وإن حجة الأقوى هي الفضلى"، وإن القوي هو المطاع، فإن على الدولة الصغيرة أن تدرك أنّ بقاءها مرهون إلى حَدٍّ بعيد بقدرتها العسكرية الذاتيّة.

وإذا كان هذا الواقع صحيحاً بالنسبة إلى دولة مسالمة كسويسرا مثلاً التي تملك قدرة عسكرية كبيرة، رغم أنها محاطة بدول حضارية، فكم بالأحرى يجب أن يكون صحيحاً بالنسبة إلى لبنان؟

أما المقولة التي إرتكزت عليها سياسة لبنان والتي تدعي أن "قوّة لبنان في ضعفه" فلا نقول إنها أثبتت خطأها فحسب، بل نؤكد، أنها كانت، وما تزال، مدعاة للخجل والهزء والسّخرية، لذلك ينبغي على الدّولة الصغيرة، بناء قوّتها العسكرية، معتمدة على الأمور التالية:

١- **العدد:** الذي يجب أن يكون متناسباً مع حجم الأخطار المحدّقة بالدولة، وهنا تتبيّن فداحة الخطأ الذي إرتكبه الحكم اللبناني حين إعتمد في بناء قوّته العسكرية رقماً مضحكاً، وبالمقابل تتبيّن صحّة سياسة إسرائيل في هذا المجال.

٢- **السلاح:** الذي يجب أن يكون حديثاً ومتطوّراً بإستمرار وذلك لتعويض النقص في العدد خاصة في مواجهة عدوّ يفوقه كثيراً في هذا المجال. ومن المهم جداً أن تسعى الدولة الصغيرة إلى إنتاج سلاحها وتطويره على أرضها حتى لا تبقى تحت رحمة الدول المصدّرة التي كثيراً ما تقيّد الدول المستوردة بشروط معيّنة، وتلزمها بإتباع سياسة قد تتعارض مع مصالحها.

٣- **التدريب:** الذي يجب أن يكون على أعلى مستوى وعلى أكبر قدر من الإتقان، مع ضرورة تطويره وتحديثه في صورة دائمة، تتماشى مع قفزات التكنولوجيا الحديثة، في جميع الميادين البرّية والبحرية والجوّية، بالإضافة إلى التركيز على المجالات التي يفتقر إليها العدوّ، وإستحداث فنون قتالية تتلاءم مع طبيعة العدوّ والأرض معتمدة سرعة التحرّك وعنصر المباغتة.

٤- **خلق المجتمع المجنّد:** وهذا يفرض ضرورة إعتماد التجنيد الإلزامي، للذكور والإناث، في سنّ معينة، بهدف بناء جيل من المواطنين يتصف بالجدية، والإنضباطية، وحب الوطن، لأن الميوعة والإتكالية، واللامبالاة من شأنها إضعاف الأوطان وتقويضها.

ثالثاً: على الصعيد الحضاري:

على الدول الصغيرة أن تلعب دوراً فاعلاً في الحضارة العالمية فتساهم في مجالات العلم والفن والثقافة والأدب وغيرها، وعليها بصورة خاصة أن تبرع في إختصاص واحد على الأقل بحيث تبلغ درجة التفوّق والإبداع فتصبح مرجعاً عالمياً في هذا الإختصاص.

من أجل تحقيق ذلك عليها:

١- إنشاء مراكز للبحوث العلمية في مختلف الميادين، مع ما يقتضي ذلك من تخصيص ميزانيات، تمكنها من إستقطاب العلماء للعمل في هذه المراكز، لأن العلماء الكبار، هم الذين يصنعون الدول الكبيرة، ولأن رقي الدول يقاس بكثافة المختبرات العلمية القائمة على أرضها.

٢- تشجيع الفنانين والأدباء والشعراء وأهل الفكر وتخصيص ميزانية ضخمة لهذا الغرض وإنشاء مراكز لترجمة نتاجهم إلى مختلف اللغات العالمية والحضارية لكي يتعرّف العالم إلى هذه الدولة من خلالهم.

إن الدول الصغيرة بقدر ما تترسّخ فيها الحضارة، بقدر ما تشكل ضماناً لبقائها، وعندما تتعرّض دولة حضارية للخطر يشعر العالم إنه معني مباشرة بهذا الخطر، ولا بُدّ أن يدفعه ضميره إلى نجدتها، وهو عندما يفعل، لا يدافع عن هذه الدولة بحدّ ذاتها، بقدر ما يدافع عن الحضارة المتجسّدة فيها.
إن السرّ في بقاء لبنان عبر العصور، والذي يجهله الكثيرون لا يعود فقط إلى نضال شعبه المستميت، وإلى صداقاته الدولية فحسب، بل يعود إلى الدور الحضاري الكبير الذي لعبه عبر التاريخ وما يزال.

إن هذا الدور رفع لبنان إلى مكانةٍ مرموقة بين الدول الحضارية، وفرض عليها إحترامه، ودفعها دوماً إلى الإهتمام به ونجدته في وجه العواصف الغازية التي هبّت عليه بصورة دائمة.

هذه هي في إختصار مقومات بقاء الدول الصغيرة، والمؤسف حقاً أننا في لبنان لم نع بعد شيئاً منها.

فمنذ عشرات السنين لم نبادر يوماً إلى بناء دولة على أسس علمية، وبتخطيط بعيد النظر على النحو الذي ذكرناه.

والمؤسف كذلك أننا لم نع خطورة هذا الأمر لا على مستوى المسؤولين ولا حتى على مستوى الشعب، إن لبنان لم يصل فجأة إلى حالة الإنهيار التي يتخبّط فيها اليوم، وإنما هذا الإنهيار كان نتيجة تراكم الأخطاء على مدى عشرات السنين.

فعسى أن تكون دروس الماضي، وإختبارات الحاضر، وفواجع الحرب قد أيقظت فينا روح المسؤولية والوعي القومي فلا تذهب سدى دماء الشّهداء وتضحيات المناضلين.

الجبهات السِتّ في مواجهة عدوان خارجي

إستعرضنا في بحثنا السابق المقوّمات الأساسية التي تؤمّن إستمرارية بقاء الدول الصغيرة، وتحصّنها ضُدّ خطر الإبتلاع من قِبَل الدول الكبيرة وخصوصاً المتاخمة لها.

وفي بحثنا اليوم نستعرض كيفيّة تطبيق هذه المقوّمات عند وقوع الخطر.

علينا أن ندرك، بادىء ذي بدء، إن الحرب إذا نشبت بين دولتين، فإنها لا تقتصر كما يتوهّم البعض على الناحية العسكرية وحدها، بل هناك مجموعة من الخطوات التي يجب القيام بها لمساندة التحرّك العسكري.

عندما تتعرّض الدولة لإعتداء خارجي تتحرّك فوراً مع الجبهة العسكرية جبهات خمس وهي:

جبهة الصداقات الدولية، الجبهة الحضارية، الجبهة الإعلامية، جبهة الحق، وجبهة الأخلاق.

١- **الجبهة العسكرية:** على الدولة المعتدى عليها أن تتصدّى للدولة المعتدية بمختلف الوسائل العسكرية وإعطاء الأوامر الصارمة والصريحة للجيش بأن يمنع العدوّ من إحراز أي تقدّم سريع مهما كلف الأمر وذلك عن طريق تطبيق شعار: "كل شبر بقبر".

لقد علمتنا التجارب أن المعتدي الذي يتمكن من تحقيق نصر عسكري سريع، يضع العالم والمراجع الدولية أمام الأمر الواقع وينتهي الأمر، بل وتسارع الدول "مبيّضة الوجه" إلى الإعتراف بالوضع الجديد وإيجاد المبررات المشروعة له.

لذلك وبهدف كسب الوقت، ولإفساح المجال أمام المنظمات الدولية للتحرّك، ولإتاحة الفرصة لإيقاظ الضمير العالمي يجب على هذه الدولة أن تتشبّث بأرضها وتستميت في الدفاع عنها لفترة زمنيّة كافية، بإنتظار أن تتحرّك الدول الصديقة.

ويجب أن يكون واضحاً هنا إن الدول الصديقة، لا ترسل جنودها للدفاع عن الدولة المعتدى عليها إذا لم تدافع هي أولاً عن نفسها، وعلى سبيل المثال نقول إن أياً

من الدول الصديقة للبنان لن ترسل أبناءها ليموتوا فداءً عنه إذا إمتنع أبناء لبنان عن الموت في سبيل وطنهم.

٢- **جبهة الصداقات الدولية:** تتحرّك هذه الجبهة إذا توافرت الشروط التي ذكرناها في الجبهة العسكرية وإذا كانت الدولة المعتدى عليها قد أمّنت صداقات دولية متينة مبنية على المصالح المشتركة.

تتحرّك الدول الصديقة أولاً على الصعيد السياسي فتضغط على الدولة المعتدية لحملها على التراجع.

وإذا فشلت المساعي السياسية تتحرك عندها الدول الصديقة على الصعيد العسكري فترسل مساعدات عسكرية، وإذا لزم الأمر قوات عسكرية لتشارك في القتال إلى جانب الدولة المعتدى عليها، خصوصاً إذا كانت هذه الأخيرة مرتبطة بأحلاف دفاعية واضحة مع الدول الصديقة.

وإذاً بقدر ما تكون المصالح المشتركة حيوية بالنسبة إلى الدولة الصديقة، بقدر ما يكون حماسها أشدّ وتدخّلها أفضل.

٣- **جبهة الحق:** إن هذه الجبهة مهمة جداً في تسهيل عملية تحريك الدول الصديقة، وبقدر ما يقتنع الرأي العام الدولي، بأن الدولة المعتدى عليها، هي صاحبة الحق، بقدر ما تتحمّس في تدخّلها، لأن الدول الكبيرة مقيّدة إلى حدٍّ بعيد بالرأي العام الداخلي والعالمي الأمر الذي يمنعها من مساعدة الدولة المعتدية، ومن الظهور بمظهر من يشجّع الأعمال العدائية أو يوافق عليها.

ولنا مثل على ذلك، في سياسة إسرائيل التي لا تقوم بأي عمل عسكري، إلا بعد أن تمهّد له بحملة إعلامية وديبلوماسية واسعة تثبت فيها أمام الرأي العام الدولي، إنها مهددة بالخطر وإنها تمارس حقها المشروع في الدفاع عن النفس.

يضاف إلى ذلك إن حمية الجنود وضباطهم وقيادتهم تتضاعف في القتال حتى الإستشهاد إذا كانوا مقتنعين بأن القضية التي يدافعون عنها هي عادلة ومُحِقة.

٤- **الجبهة الإعلامية:** لا بُدّ للدولة المعتدى عليها من أن تركز على الناحية الإعلامية عند تعرّضها للخطر وذلك عبر تحقيق ما يلي:

أ- إمتلاك وسائل إعلام متطوّرة لتغطية أكبر مساحة ممكنة من العالم ولإيصال صوت الدولة الصغيرة إلى أكبر عدد من الرأي العام العالمي.

ب_ تهيئة جهاز إعلامي بشري من الدرجة الأولى يشرف عليه أفراد من ذوي الإختصاص والموهبة الكبيرة.

ج- تخصيص ميزانية ضخمة لتغطية نفقات وسائل الإعلام العالمية وتحريكها لمصلحة هذه الدولة بالذات.

٥- **الجبهة الحضارية:** بقدر ما تكون الدولة المعتدى عليها حضارية بقدر ما يصعب إبتلاعها من قِبَل الدولة المعتدية، لأن الدول الكبرى تتحمّس لمساندة الدول الحضارية، ليس دفاعاً عنها فحسب، ولكن دفاعاً عن القيم الحضارية التي تمثلها.

وهذا ما قلناه في بحثنا السابق وبشكل مفصّل.

٦- **جبهة الأخلاق:** غني عن القول بأن الشروط والمبادىء التي ذكرناها آنفاً تحصّن الدولة الصغيرة المعتدى عليها وتجعلها بمنأى عن الأخطار ولكن على المسؤولين في هذه الدولة أن يكونوا أولاً على مستوى رفيع من الخلقية والمناقبية الوطنية.

فإذا إنهارت الأخلاق إنهارت الدولة مهما كانت قوية. وما هو حاصل في لبنان اليوم خير دليل على ذلك، لأن إنعدام الأخلاق لدى المسؤولين في لبنان إنعكس سلباً على أوضاع مختلف الأجهزة والمؤسسات وخصوصاً الجيش فأصابها التسوّس والإهتراء اللذان أدّيا إلى إنهيارها، وقد إنعكس ذلك أيضاً، على مواقف الدول الصديقة التي إمتنعت عن مساعدة لبنان وتقديم أي عون له في محنته الخانقة.

واقع نتحدّاه ومستقبل نناضل من أجله

لقد قطعت المقاومة اللبنانية أشواطاً بعيدة، في مسيرتها القومية على الأصعدة الأيديولوجية والعسكرية، وما يزال الشوط الأساسي والأهمّ ينتظرها، وهو شوط بناء الوطن بناءً متكافئاً مع طموحات اللبنانيين. فماذا علينا أن نواجه في المرحلة المقبلة القريبة؟

إن علينا أن نواجه واقعنا على الوجه الآتي:

أولاً: الواقع السكني:

إن نسبة كبيرة من أبناء أمتنا لا تملك المسكن اللائق بها أو لا تستطيع أن تملك هذا المسكن، أو حتى إستئجاره. لذلك لا بُدّ من البحث جدّياً بسياسة إسكانية تحفظ إنتشار اللبنانيين فوق الأرض اللبنانية كلها ولاسيّما هؤلاء اللبنانيين الذين قاوموا أشرف المقاومة.

ثانياً: واقع العمل:

إن نسبة كبيرة أخرى من اللبنانيين تعيش بلا عمل أو هي تعمل خارج لبنان. لذلك لا بُدّ من البحث جدّياً عن سياسة عمّالية جديدة لا تحمي اللبناني المقيم فحسب، بل تسترجع اللبنانيين المهاجرين بصورة خاصّة وتحدّ من العمل في الداخل بأجر لا يكفي حاجات العيش.

ثالثاً: واقع التربية:

إن التربية ليست ترفاً وإنما هي حاجة، ولا بُدّ كذلك من تأمين التعليم لكافة اللبنانيين وفوق كل شبر من لبنان وحتى نهاية تحصيل الدكتورا.

رابعاً: واقع الإستشفاء:

إن المرض في لبنان هو أغلى أنواع المرض في العالم وبالتالي فإن المريض اللبناني هو أغلى مرضى العالم. ولا بُدّ من سياسة إستشفائية جديدة تحمي حقّ اللبناني بالعافية والصحة والدواء.

خامساً: واقع الزراعة:

إن لبنان من أغنى بلدان العالم بالثروة المائية، وهو أكثر بلدان العالم هدراً لمياهه وأقلها إفادة منها، بل إن الأراضي اللبنانية، بالرغم مما هي عليه من تركيب معقد، هي من أصلح بلدان العالم للثروة الزراعية، ولذلك على الحكام أن يستجيبوا لحاجات المزارعين ليبقوا في أرضهم ويتمسّكوا بها وبخيراتها.

إن المسيرة لا يمكن أن تستمرّ بشحن العواطف، والإنفعالات، ولا بُدّ من تدعيمها بسياسة مشاريع عمرانية، مستمدة من روح العصر وحاجات اللبنانيين وإمكاناتهم، فإن نحن فعلنا ذلك إستمرّت مسيرتنا كي تبلغ أهدافها وإن نحن أهملنا ذلك تعرقلت هذه المسيرة لا سمح الله. وعلينا أن ندرك كم نحن بحاجة إلى موازنة للمشاريع لا إلى موازنات للموظفين والجيوب.

روح الصمود ومصلحة الأمّة

إن الأمّة لا يتحقق إستمرارها بتأكيد إنتصار سياسي هنا، أو إنتصار عسكري هناك، أو إنتصار إجتماعي هنالك، أو إنتصار تربوي مَرّة وإنتصار إقتصادي مَرّة أخرى.

ولكن الأمّة يتحقق إستمرارها بتأكيد عملها الدائم والدائب لشمول إنتصاراتها وديمومتها وتطوّرها. فتأخذ كل يوم دفعاً جديداً ويتسرّب إليها كل يوم دَمٌ جديد.

وفي هذه الأيام التي حققت فيها المقاومة اللبنانية إنتصاراً عسكرياً على أعدائها فتمكنت بصمودها من طرد اللاجئين المسلحين، بقي عليها أن تعمل لطرد كل الغرباء حتى لا يبقى منهم إلا نسبة ال ٥ ٪ التي تحتاجها مصلحة الأمّة اللبنانية. ولكي تتمكن المقاومة اللبنانية من تقليص عدد الغرباء إلى هذه النسبة عليها أن تعمل عبر وسائل الضغط السياسي المشروعة لكي تحمل الحكومات على إزالة مراكز تجمّع الغرباء في المخيمات والمدن التنكيّة والأبنية المقامة فوق أملاك الغير، فيجد الغريب نفسه مضطراً إلى العودة لبلاده حيث لم يعد له مكان في بلادنا.

وفي هذه الأيام التي حققت المقاومة اللبنانية إنتصاراً سياسياً آخر بوصول أحد قادتها إلى سُدّة رئاسة الجمهورية فتمّ الإقرار النيابي والشعبي بحق المقاومة اللبنانية في بناء لبنان وفق روح الصمود اللبناني ولمصلحة الأمّة اللبنانية، على الحكم اللبناني أن يعمل بكل قوّته لبناء مقوّمات الصمود اللبناني، لا على مدى العشر أو العشرين سنة القادمة، بل على مدى بعيد جداً، وذلك من خلال تحقيق المشاريع الكبرى التي تعود على الأمّة اللبنانية بالخير، وتهيىء لها سبل العيش بسعادة فوق أرضها، كأن يسعى الحكم إلى الأمور الآتية:

١- الحَدّ من هجرة اللبنانيين إلى الخارج بقصد الإقامة الدائمة.

٢- العمل لإسترجاع الكفاءات اللبنانية التي هجّرتها الحرب والسياسات المهترئة.

٣- الإسراع في بناء الديمقراطية الإجتماعية على الأصعدة كافة.

٤- تحصين المجتمع اللبناني بقوانين تردع الدخيل والغريب وتشوق اللبناني وتحصنه.

وعلى الحكم الجديد الذي لا يتمثل بالأفراد، بقدر ما يتمثل بروح الشعب، أن يستلهم ضمير الأمّة الذي برز في خلال سنوات الحرب وأن يعمل بوحي منه، لأن ضمير الأمّة، لا يمكن أن يخطىء، كما لا يمكن أن ينحسر أو يتراجع.

ولكي تستمر المسيرة، نحن بحاجة إلى مراجعة عامّة وعميقة لكل الأسباب التي حالت في السنوات الثلاثين الماضية، دون تقدّمنا الوطني والإجتماعي والسياسي والإقتصادي والتربوي والعسكري، ولا بُدّ من القضاء على هذه الأسباب، وإن كلفتنا أحياناً بعض الإنتقادات أو بعض الآلام، إذ لا يجوز أن يقع الحكم المنبثق من ضمير الأمّة حيث وقعت الأحكام المنبثقة من المساومات والتنازلات والألاعيب السياسية.

إن مسيرتنا مندفعة أبداً لبناء وطننا وأمتنا وها نحن نجد أنفسنا اليوم على أعتاب البناء الكبير فعلينا أن نحسن إختيار البنّائين وأحجار الزاوية، وأعمدة البيت، وأن نحسن إختيار مواد البناء الوطني، وكل تأخير، بل كل تأجيل، أو توقف، قد يؤدي بنا إلى عكس ما يحلم به اللبنانيون، أو إلى عكس الذي طالما عللوا به الآمال والنفوس.

هذه مسيرتنا قد قررنا أن نندفع معها بكل صدق وإخلاص. فعسى أن تتشابك الأيدي المؤمنة بالأمّة اللبنانية العظيمة لنرفع معاً هيكل لبنان كأعلى ما يكون بل أقوى ما يكون.

ملاحظة: ظهر هذا المقال غداة إنتخاب الشيخ بشير الجميّل رئيساً للجمهورية.

محطات من المقاومة القدَرْ

نردّد كل يوم في كتاباتنا وأحاديثنا عشرات المرّات عبارة "المقاومة اللبنانية" حتى أصبحنا نكررها لا شعورياً، لدرجة إننا أوشكنا على أن نُفقِدها معناها العميق ومحتواها الحقيقي.

مِنَ الناس مَنْ يتصوّر إن المقاومة اللبنانية ولدت مع هذه الحرب ولا بُدّ أن تزول بزوالها معتبرين أنها كانت حاجة ظرفيّة من حاجات الحرب وضرورة من ضروراتها.

وإذا عدنا إلى التاريخ نرى أن المقاومة اللبنانية عُمرها من عُمر لبنان، ولدت معه ونشأت وترعرعت وكبرت وما تزال إلى اليوم وستبقى غداً ولن تزول إلا بزواله لا سمح الله...

وقد وَرَدَ في كتاب "من عقيدة حرَّاس الأرز" الصفحة ١١ النَصّ التالي:

"منذ آلاف السنين ولبنان يواجه الغزوة تِلوَ الغزوة، ويصُدّ الفتوح تِلوَ الفتوح، ذلك إن موقعه الجغرافي ووجوده على ملتقى الطرق بين الشرق والغرب، وطبيعة أرضه المتمايزة التي خصّها الله بنِعَم فريدة، جعلت منه وطناً لا أغلى ولا أجمل... فكثر الطامعون به... وأصبح مَحَطّ أنظار الغزاة والفاتحين، الأمر الذي جعل اللبناني يواجه صراعات مستمرة ضد هذه القوميات الدخيلة التي حاولت، ولا تزال تحاول إبتلاع قوميّته وطمس حضارته، وقد دفعت هذه الصراعات الشعب اللبناني إلى التشبّث بأرضه والتعلق بقوميته والحفاظ على تراثه على مَرّ الأجيال..."

إن هذا الكلام يعني أن الله الذي وهبنا هذا الوطن الفريد، كتب علينا أن نحميه بإستمرار لأن الخطر عليه داهم ومستمر، فلهذا كانت مقولتنا: "نحن شعب مأسوي قدرنا التحدّي وبيتنا الخطر..."

هناك مَنْ يتساءل بتعجّب كيف أن الشباب اللبناني في خلال هذه الحرب تحوّل فجأة مِنْ شباب عابث، مُحِبّ لِلّهو والحياة إلى شباب مقاتل من الطراز الأول، إنتزع عن جدارة إعجاب العالم وإحترامه. إن هذه التساؤلات تحزنني وتحزّ في نفسي بسبب سطحيتها وسذاجة أصحابها وجهلهم الكامل لتاريخ شعبنا العظيم والملاحم البطولية التي سطرها أجدادنا بدمائهم الزكيّة عِبر العصور... إنهم يجهلون كذلك إنّ ما فعلناه أثناء هذه الحرب، إنما هو إمتداد لما فعله أجدادنا بالأمس، وإن المقاومة اللبنانية اليوم ما هي إلا حلقة من حلقات المقاومة اللبنانية على إمتداد التاريخ، وإن

المواقف الرائعة التي وقفها الشعب اللبناني اليوم، شبيهة بمواقفه الماضية مع تغيّر فقط بالأسماء والمواقع، وإن البطولة التي أظهرها شبابنا اليوم لم تفرخ فجأة عندهم بل ورثوها عن أجدادهم، فكانت كامنة في أعماقهم حتى جاءت الحرب فأيقظتها فيهم...

لذلك وتدعيماً لما نقول، رأينا أن نشهّد التاريخ، فنذكر على سبيل المثال بعض المحطات المهمة في تاريخ مقاومتنا اللبنانية...

– مقاومة صور في وجه الأشوريين حوالي العام ٦٨٥ ق.م. طوال خمس سنوات الأمر الذي دفع بملكهم شلمانصّر إلى عقد إتفاقية هدنة معها وفكّ الحصار عنها.

– مقاومة صور للكلدانيين أيام نبوخذ نصّر الذي حاصرها مدة ثلاث عشرة سنة وذلك حوالي العام ٥٨٥ ق.م. وبعد أن عجز عن إحتلالها وقع معها كذلك معاهدة هدنة وإنكفأ بعد ذلك إلى مصر وإحتلها بسهولة.

– مقاومة صيدا لملك الفرس أرتحششتا الثالث في العام ٣٤٧ ق.م. والإنتحار الجماعي الشهير الذي أقدمت عليه "لتحرمه نشوة النصر... (كتاب العقيدة صفحة ٧)" وهو أول إنتحار جماعي في التاريخ.

– مقاومة صور في وجه الإسكندر المكدوني في العام ٣٣٢ ق.م. حيث دام الحصار سبعة أشهرفي الوقت الذي لم يجرؤ أي شعب من شعوب المنطقة على أن يقف في وجهه وحيث أظهر شباب صور بطولات فاقت الوصف فقاتلوه من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت.

– الحروب الفونية أو الفينيقية التي قام بها هملقار برقا وإبنه هنيبعل والتي دامت من العام ٢٦٤ ق.م. حتى العام ١٤٦ ق.م. حيث تغلبا في أكثر من موقعة على جيوش الإمبراطورية الرومانية وحيث مكث هنيبعل داخل الأراضي الإيطالية أكثر من ست عشرة سنة.

– صمود المردة أيام الفتح العربي في العام ٦٣٦ ب.م. وإضطرار الخليفة عبد الملك بن مروان إلى دفع الجزية إلى اللبنانيين ثمن سكوتهم عنه، فإستطاعوا بفضل تلك المقاومة العنيدة أن يؤمنوا إستقلالية الجبل في الوقت الذي وصلت جيوش العرب إلى قلب أوروبا.

– حروب المقدمين ضد العرب من العام ٦٧٠ إلى ٧٠٠ ب.م. حيث حافظوا على إستقلالية الجبل في وجه الخلفاء الأمويين.

– ثورة علاقة إبن صور في العام ٩٥٠ ب.م. في وجه الفاطميين والذي إستعان بالبيزنطيين وأعلن إستقلال صور.

– مساعدة اللبنانيين للصليبيين في حروبهم ضد الأمويين الأكراد والحمدانيين العرب والسلجوقيين الأتراك حيث قدّموا لهم حوالي ٢٥ ألف جندي لبناني.

– حروب كسروان في وجه المماليك من ١٢٥٠ ب.م. إلى ١٥٢٦ ب.م. والتي إشترك فيها اللبنانيون المسيحيون والدروز والشيعة.

– حروب المعنيين ضد العثمانيين من عام ١٥٩٠ إلى ١٦٣٥ وأشهر رجالاتهم فخر الدين الثاني الذي إنتصر على والي الشام وجيش العثمانيين في موقعة عنجر الشهيرة.

– موقعة عين دارة في العام ١٧١١ التي إنتصر فيها الأمير حيدر شهاب على اليمنيين المدعومين من العثمانيين.

– مقاومة اللبنانيين ضد إبراهيم باشا عام ١٨٣٨ الذي دخل لبنان كحليف ولم يلبث أن تحوّل إلى محتلّ فحاول تركيع اللبنانيين وإخضاعهم له الأمر الذي دفع الشنتيري وأبو سمرا غانم إلى مقاتلته في الجبل ودحره.

– ثورة يوسف بك كرم ضد داود باشا أول حاكم أجنبي على لبنان في العام ١٨٦١.

– موقعة بير حكيم التي قاتل فيها اللبنانيون إلى جانب الإنكليز والفرنسيين الديغوليين ضد الإلمان بقيادة رومل والتي تميّز فيها اللبنانيون بشجاعة نادرة وصمود رائع أدهش الحلفاء وذلك في الحرب العالمية الثانية.

– وفي العام ١٩٥٨ حين قاوم اللبنانيون جمال عبد الناصر وقضوا على حلمه بضمّ لبنان إلى ما يسمّى "بالوحدة العربية" فحافظوا على سيادتهم وإستقلالهم.

– وأخيراً من العام ١٩٧٥ وحتى اليوم، صمود المقاومة اللبنانية في وجه الفلسطينيين والسوريين وحلفائهم من المرتزقة حيث إستطاعت المقاومة اللبنانية، بشكل رائع أن تقف في وجه مؤامرة إبتلاع لبنان من قِبَل اللاجئين الفلسطينيين والدولة السورية، في وقتٍ وقف فيه العالم يتفرّج ظناً منه إن لبنان سينهار خلال أيام معدودة، وقد تملكه الذهول عندما شاهد هذه الحفنة من الشباب تواجه جيوشاً جرّارة ومنظمات متعدّدة تفوقها مئات الأضعاف عدّة وعدداً.

لقد توخّينا من خلال هذا العرض السريع لبعض مراحل الصمود اللبناني عبر التاريخ أن نؤكد للمشككين ولضعفاء النفوس وللجهلة على أن لبنان باقٍ مهما إشتدّت عليه المِحَن لأن مقاومته المتأصّلة في التاريخ لم تنكسر يوماً ولم تنقطع أبداً بل كانت دائماً فعل إستمرار في المكان والزمان، والدليل الساطع هو إستمرارية بقاء الأقلية اللبنانية حتى اليوم، في الوقت الذي إندثرت فيه أو غابت كل الأقليات التي كانت تعيش في المنطقة.

لقد ذكرنا في مقالتنا السابقة إن لبنان هو حِلف بين البحر والجبل وهذا يعني إن اللبناني إكتسب بفعل هذين العنصرين المهمّين وقرب المسافة بينهما، شخصيتين متميزتين ومتمايزتين، **الأولى** إتصفت بروح المغامرة والميل نحو الأسفار وإتساع الأفق، فدفعت به إلى إختراع السفن وركوب البحر وإكتشاف القارات والشعوب والتعامل معها على مختلف الأصعدة التجارية والثقافية والإجتماعية والدينية والحضارية والعسكرية والسياسية وغيرها، فبرع فيها كما لا أحد، **والثانية** إتصفت بروح المقاومة والتشبث بالأرض والصمود والقتال كلما دعت الحاجة، فبرع فيها كذلك كما لا أحد.

إنّ هذا السرّ الفريد من نوعه، هو الذي أدهش العالم ورسم أكثر من علامة إستفهام حول مقدرة اللبناني العجيبة على التكيّف في أصعب الظروف، وعلى تخطي المشكلات المعيشية والإقتصادية والعسكرية خلال سبع سنوات بصورة رائعة يعجز عن تخطيها أي شعب آخر.

والكل يتساءل اليوم كيف أن اللبناني، لا يزال رغم الحرب الطويلة، محافظاً على مستواه المعيشي ومدخوله الفردي الذي يعتبر من أعلى مداخيل شعوب العالم، وكيف أنه ما يزال يشيد المباني والمؤسسات ويعتمد الأناقة في لبسه والترف في حياته وكأن شيئاً لم يكن...

بينما لو كانت الحرب قد إستمرّت سبعة أشهر كي لا نقول سبع سنوات في بلدٍ آخر لكانت تغيّرت ظروفه المعيشية وسارعت المجاعة إلى أبنائه...

إن جَهل التاريخ هو كارثة وطنية، وفي لبنان لم يكن هذا الجَهل مقتصراً على الشعب فقط بل تعدّاه إلى الحُكام أيضاً، وهذا بإعتقادي هو السبب الرئيسي الذي جعل الحُكام يقعون في الأخطاء الكبيرة التي وقعوا فيها.

ملاحظة: ظهر هذا المقال عام ١٩٨٢.

الجدار المالي: طغيانه وألاعيبه

الرأسمالية الحادة هي العدو الخامس في درجة الأعداء الثمانية الذين حدّدهم حرّاس الأرز والذين تجب محاربتهم بلا هوادة في سعينا إلى تحقيق لبنان الجديد.

إن الرأسمالية الحادة تعني مجموعة الكومبرادور "المتحكمين" برقاب المواطنين اللبنانيين وكأنهم السيف المسلط على العباد، وقد تميّزت هذه المجموعة بإحتكار المواد خصوصاً السلع والحاجيات الحياتية، وبالجشع في جني الأرباح الطائلة من دون أي رادع من ضمير أو سلطة، وبالتحكم بالأسعار، والتواطؤ مع السلطة تدعيماً لسلطانها، حتى أصبحت الطغمة الرأسمالية هي السلطة الفعلية بعدما كانت لفترة طويلة تحكم من وراء الستار، وقد أعلن ذلك الرئيس شارل حلو عندما قال: "حتى أن لبنان يحكمة الجدار المالي".

إن عِلم الموازنات يقول بأن الميزانية العلمية لكل بلد يجب أن تكون ٣٥ ٪ كحدّ أدنى من نسبة الدخل القومي العام، ويضيف إنه إذا كانت الموازنة دون هذه النسبة لا يستطيع هذا البلد أن يُلبّي حاجياته ولا يستطيع النهوض ليقف على رجليه. عِلماً إن هناك من الدول ما تزيد موازناتها على ال ٤٠ ٪.

والتفسير الوحيد الذي يعطيه عِلم الموازنات للموازنة الضعيفة التي لا تصل إلى نسبة ال ٣٥ ٪ هو التواطؤ بين كبار الأغنياء والحكم.

إن الموازنة في لبنان منذ بدء الإستقلال وحتى اليوم لم تصل يوماً إلى هذه النسبة العلمية، بل كانت دائماً دونها بكثير، وهذا ما يفسّر تماماً واقع الحال عندنا، وما يؤكد تواطؤ الحكم مع كبار الأغنياء أو الرأسمالية الحادّة. ومثال على هذا التواطؤ، والأمثلة كثيرة، هو تهرّب هذه المجموعة من الأغنياء من دفع الضرائب التصاعدية، بطُرُق إحتيالية عديدة أهمّها إخفاء الأرباح الحقيقيّة لمؤسساتهم وتقديم ميزانيات مغلوطة إلى الدولة تثبت وكأن هذه المؤسسات واقعة تحت العجز بينما هي في الواقع تخفي الميزانية الحقيقيّة التي تكون أرباحها قد تجاوزت الملايين.

وكلنا يعرف إن معظم المؤسسات الخاصة في لبنان كانت ولا تزال تدفع موظفي المحاسبة عندها إلى إصدار ميزانيتين في آخر كل سنة، واحدة تقدمها إلى الدولة تثبت فيها دائماً إنها خاسرة والأخرى ترفعها إلى مجلس إدارة المؤسسة تثبت فيها دائماً إنها رابحة.

إن هذا النمط من الغش والتحايل أدّى إلى إفقار خزينة الدولة، وإلى تجميد المشاريع الإنمائية والإنشائية وإلى تحكم الرأسمالية الحادّة بمقدّرات الشعب والدولة حتى أصبحنا نعيش في شبه مزرعة يملكها نسبة ال ٤ ٪ من كبار الأغنياء اللبنانيين، بينما نسبة كبيرة من الشعب اللبناني تعاني من العَوز وتعيش ليومها فقط.

لا نريد أن يُفهم من حديثنا هذا إننا ضد الأغنياء أو ضد المبادرة الفردية أو ضد التجارة الحرة، ولكننا ضد الإحتكار والجشع والتحكم الإقتصادي والتهرّب الإحتياطي من دفع الضرائب التصاعدية الصحيحة...

وقد برهنت الأحداث الأخيرة إن نسبة ال ٤ ٪ من كبار الأغنياء في لبنان قد هرّبت أموالها إلى الخارج تاركة مهمة شرف الدفاع عن لبنان إلى عامة الشعب من خارج هذه النسبة، وما الخمسة آلاف شهيد الذين سقطوا دفاعاً عن لبنان إلا البرهان الساطع على صحة ما نقول لأن معظمهم من المعوزين والمحتاجين ولا يملكون ربما منزلاً أو قطعة أرض في لبنان، أي بتعبير آخر لقد ماتوا عن أرض ومؤسسات لا يملكونها بل يملكها كبار الأغنياء الهاربين إلى الخارج.

إن الحكم مدعو إلى أخذ هذا الواقع المفجع والخطير بعين الإعتبار لكي يتدارك الإنهيار التام قبل وقوع الكارثة.

دولة الموظفين جدار آخر؟؟

قلنا في البند الثاني من كتاب "لبنان الجديد كما يراه حرَّاس الأرز" إننا نسعى إلى بناء دولة مشاريع لا دولة موظفين، لأن معظم الموظفين الرسميين عينتهم الواسطة ولخدمة أغراض سياسية أو طائفية، وليس لخدمة المصلحة العامة، فجاء هذا الحشد الهائل من الموظفين ليزيد الدولة عبئاً على عبء، ويرتب على الخزينة حِملاً لا قدرة لها عليه، وليعقد مصالح اللبنانيين بدلاً من تسهيلها، وليدفع المعاملات إلى جحيم البروقراطية، مما أجبر المواطن على إعتماد الرشوة سبيلاً إلى إنهاء معاملته، أو اللجوء إلى أحد تجار السياسة تفادياً للوقوع في دوّامة الدوائر الرسمية.

إن هذا الحشد من الموظفين في لبنان، فاق نسبياً كل عدد في دول العالم المتحضّر، حتى أصبحت الدولة مستودعاً للعاطلين عن العمل، فمنهم من هو عاجز صحياً عن متابعة عمله، ومنهم من يحضر إلى مكتبه مَرّة في الشهر لقبض راتبه، ومنهم من يداوم بقصد الإستفادة غير المشروعة، ومنهم من "فتح على حسابه" فحوّل دائرته إلى باب رزق. حتى إنتشرت الدكاكين في كل مؤسسات الدولة، وعمّت الفوضى كل أرجائها.

إن إحصاءاتنا تشير إلى أن عدد الموظفين اليوم في لبنان يناهز المائة ألف موظف الأمر الذي يحمّل الخزينة ما يفوق على ٨٠ بالمائة من الموازنة العامة، بينما موازنة الموظفين في الدول الراقية لا تتعدى نسبة ال ١٢ بالمائة.

لقد حاولت بعض العهود السابقة التصدي بخجل لهذه المشكلة ــ الأزمة، لكنها في كل مَرّة، كانت تصطدم بجدار مخيف يقيمه في وجهها تجار السياسة والطائفية وأصحاب النفوذ، ومراكز القوى، إضافة إلى سلطان البروقراطية، ناهيك عن إن تلك العهود لم تعتمد يوماً الأسلوب الجذري في حَلّ هذه المشكلة أو غيرها من المشاكل اللبنانية الكثيرة والمزمنة، بل إستعاضت عنه دائماً بالأسلوب الترقيعي القائم على التسوية والحل الوسط.

ربّ سائل يقول إن الحل الجذري يقضي بصرف أعداد كبيرة من الموظفين الأمر الذي يوقعنا في مشكلة أخرى هي البطالة، ولكننا نردّ على هذا السؤال بطريقة علمية فنقول:

١- إن كل بلد، عندما تصل به فوضى الإدارة إلى هذا الدّرك من الإنحطاط، لا بُدّ له من إنتفاضة ثورية تعيد إليه الحياة، وهذه الإنتفاضة لا يمكن أن تعتمد غير الأسلوب الجذري طريقاً إلى الإصلاح، حتى ولو ألحقت الغبن ببعض الأبرياء.

٢- إن المنطق السليم يحتّم علينا ألا نرضي فئة من الشعب على حساب كل الشعب، ولا أن نساوم أحداً من الناس على حساب المصلحة العامة ومصير الأمّة.

٣- إذا أقدمت الدولة على دعم المؤسسات الخاصة وحماية إنتاجها، وتشجيعها بشتى الوسائل، تصبح هذه المؤسسات قادرة على إستيعاب هؤلاء الموظفين المصروفين.

٤- ولأن الدولة هي دائماً تاجر فاشل، بينما المؤسسة الخاصة هي بالإجمال تاجر ناجح، فإن الموظف الخامل وغير المنتج في المؤسسة الرسمية يصبح نشيطاً ومنتجاً في المؤسسة الخاصة أو يضطرّ إلى ذلك، بإعتبار أن هذه الأخيرة، بطبيعة تكوينها، لا تستطيع أن تستوعب الكسل في جهازها الإداري.

إن المسيرة لا تستمرّ إلا بإنتفاضة غير عاديّة تكون بحجم الأمل والمصير، ينبري لها حاكم غير عادي، ثوري النهج والعقيدة.

الصعود والإنحدار

إن الأمم تمرّ في مراحل صعود وإنحدار، تماماً كالأفراد والمؤسسات وهذا ما يسمّى، في عِلم التاريخ، عهود الإزدهار وعهود الإنحطاط.

في مرحلة الصعود، تنعم الأمّة بالرخاء والإزدهار والقوّة والنفوذ، في جميع الميادين ويتوالى على حكمها سلسلة من الرجالات الأكفياء المخلصين، فيوصلونها إلى قمّة الهَرَم ومن ثمّ تبدأ في الإنحدار.

أما في مرحلة الإنحدار، فتتفاقم الأوضاع وتتصاعد الأزمات وتتردّى الأحوال على جميع الأصعدة، المادية، والعسكرية، والسياسية، والإجتماعية، وتنهار المؤسسات، وتنحطّ الأخلاق، ويفرز المجتمع حكاماً فاسدين، يتعاقبون على الحكم، فيوصلون البلاد إلى الدّرك الأدنى من الإنحطاط. وفي هذه الحالة، لا بُدّ من أن يحدث لهذه الأمّة واحد من أمرين:

١- إما أن يأتي رَجُل دولة، بطريقة ما، من غير الطقم المتداول، كما أتى ديغول في الخمسينات ليقوم بثورة بيضاء تنفخ الحياة في الأمّة، فتوقظها من سباتها العميق وتنشلها من حالة الإنحطاط فتبدأ من جديد مرحلة الصعود.

٢- وأما أن تشتعل الحرب، نتيجة إنقسام هذه الأمّة على بعضها وتردّي الأوضاع العامة فيها فتتمخّض عندئذٍ، بفعل الدماء المراقة من أبنائها، عن ثورة حمراء، يأتي على أثرها قياديّون جدد، من غير الطقم الفاسد، فتقضي بقوّة السّيف، على الأوضاع الشاذة، فتقوّم الإعوجاج، وتعيد الأمور إلى نصابها الطبيعي، ومجراها الصحيح، فتنهض الأمّة، على يد هؤلاء القياديين وتبدأ عملية الإرتقاء من جديد.

أما الفرق، بين الأمة والأفراد، في مراحل الصعود والإنحدار، فهو أنها قصيرة المسافة وسريعة التغيّر عند الأفراد، بينما هي عند الأمّة، بعيدة المسافة، وطويلة الأمد، قد تتعدّى أحياناً أجيالاً كثيرة.

أما في لبنان، فقد وصلنا إلى قمة من الصعود، مع فخر الدين الثاني، في أوائل القرن السابع عشر، أي منذ حوالي الثلاثماية والثمانين سنة، هذا في العصر الحديث، كي لا نتكلم عن عصور الإزدهار القديمة التي مَرّ بها لبنان. وبعد فخر

الدين، بدأ لبنان بالإنحدار وما زال حتى الساعة، وقد وصل فيه إلى الدّرك الأدنى، لأن الحالة التي نعيشها اليوم، لا يمكن أن تكون أسوأ مما هي عليه، على جميع الأصعدة، الأمنية منها، والسياسية، والإجتماعية، والأخلاقية، حيث يعاني لبنان اليوم أقصى حالات التدهور والتشرذم والتردّي والفوضى... وعلى صعيد المسؤولين، مدنيين كانوا أم عسكريين أم روحيين، فإننا نعتقد بأن الشعب اللبناني لم يفرز في تاريخه القديم والحديث أردأ منهم.

لذلك نقول: إن مرحلة الصعود، في لبنان ستبدأ حتماً، وفي وقت قريب، وذلك بفضل الصمود الذي تجلى بصورة رائعة، عند أبناء الشعب اللبناني، وخصوصاً بفضل الدماء الزكية التي بذلها الشهداء كفّارة عن الخطايا المميتة التي إقترفها هؤلاء المسؤولين.

إن كل شيء يمكن إفتداؤه بالمال، ما عدا الإستقلال. فإنه لا يفتدى إلا بالدم. لذلك كان لا بُدّ لنا من دفع هذه الضريبة الغالية. وقد دفعناها بطيبة خاطر.

ويسألونني: هل أنت متفائل؟ فأجيب إن كل مناضل مؤمن، ومتفائل، بل أنا أكثر من متفائل إذ إنني تأكدت من حتميّة إنتصار لبنان، منذ إندلاع الحرب عليه لأنني أعرف ماضي هذا الشعب العظيم وأعرف كذلك، إنه في خلال تاريخه الطويل، إستمرّ باقياً وبقوّة، رغم كل الأخطار والعواصف التي مَرّت عليه ورغم المحاولات المتكرّرة التي كانت تستهدفه دائماً في وجوده ومصيره.

وإن وقفته البطلة اليوم، ما هي إلا واحدة من سلسلة وقفاته التاريخية التي كان يتحدّى بها دائماً تلك الأخطار والعواصف والمحاولات.

العروبة وعقدة الجمل

بعد حوالي نصف قرن على قيام الحركة العروبية، وبعد أن توصلت إلى تضليل الملايين من أبناء هذا الشرق، وتخديرهم بأفيون الوحدة بين شعوب المنطقة الممتدة من "المحيط الهادر إلى الخليج الثائر"، وإقامة "إمبراطورية عربية واحدة" تعيد "أمجاد العرب" إلى سابق عهدها.

بعد مرور نصف قرن على هذه الحركة الوهمية، إستفاق الناس ليكتشفوا إنها كانت مجرّد حلم ليلة صيف، وخدعة مفضوحة دغدغت مخيلتهم لفترة من الزمن.

لقد نبّهنا أكثر من مَرّة إلى خطورة هذه الحركة فإتهمنا بالإنعزاليين، وحذرنا من مغبّة السير في ركابها، فإتهمنا بالرجعيين، وشددنا على أن القوميات لا تمحى بالسهولة التي يتصوّرون كما وأن الأمم لا تقوم على فكر إنفلاشي لا يرتكز على ثوابت تاريخية وحضارية وإتنية وإرادة عيش مشترك فإتهمونا بالشعوبية.

إن العروبة برأينا هي لعبة مثلثة الرؤوس والمنطلقات قامت على الجبانة والبخل والكذب:

أولاً: هي لعبة جبانة، لأن كل دولة من دول المنطقة سعت دائماً إلى محاربة إسرائيل بواسطة جيش دولة أخرى من دول "الوحدة العربية"، وذلك لتحييد نفسها وزجّ غيرها بالمعركة، متسترة وراء شعارات الكفاح المشترك، والقضية الواحدة، والمصير الواحد، الأمر الذي خلق عند العروبيين روحاً عاماً من الإتكالية أوصلتهم في ما بعد إلى روح الإنهزامية الكاملة.

إن العروبيين مصابون بعقدة الكثرة، تماماً كما البدوي المصاب بعقدة الجمل، وقد تركز سعيهم بإستمرار على ضَمّ دول جديدة إلى هذا "العالم العربي" فوصلوا إلى دجيبوتي والصومال وأرتيريا وجزر القمر التي لا تمُتُّ إلى العرب بأية صلة، وذلك بهدف تجميع أكبر عدد ممكن من البشر في مواجهة إسرائيل، بينما هذه الأخيرة ركزت على النوعية، وإعتمدت على نفسها في كل حروبها ، فواجهت بملايينها الأربعة، عشرات الملايين وسحقتهم خلال أيام معدودة.

ثانياً: هي لعبة بُخل، لأن الدول المواجهة لإسرائيل قررت محاربتها بأموال غيرها من دول "الوحدة"، دون أن تنفق هي شيئاً من خزينتها، وما لبث هذا الشعور بالبخل أن تحوّل ميلاً للإبتزاز، فراحت دول "المواجهة"، التي سمّيت في ما بعد دول "الصمود والتصدي" تفرض على دول "المساندة" الشديدة الغنى، أموالاً طائلة لبناء جيوش قادرة على مواجهة إسرائيل، وسرعان ما إكتشف عرب "المواجهة" إن عرب "المساندة" هم هذه الدجاجة التي تبيض ذهباً، فراحوا يمارسون عملية الإبتزاز هذه بطريقة منظمة، تارة عن طريق الإرهاب والتهويل والتهديد بضرب كل نظام "متخاذل عن القيام بِ "واجبه القومي"، وطوراً عن طريق عقد مؤتمرات "القمّة العربية" التي تبدأ عادة بمصالحة الأنظمة العربية المتخاصمة، ثم تبحث شكلاً ببعض القضايا العالقة، كقضية القرن الأفريقي، ومشكلة الصحراء المغربية، فتجد لها "الحلول المناسبة"، وتنتهي، هنا بيت القصيد، بتوزيع الحصص على دول "المواجهة" من قبل دول المساندة. وأخيراً بعد أن تمتلىء الجيوب الخاوية، يختم المؤتمرون قمتهم ببيان رمادي اللون يرضي الجميع ويتوّج طبعاً بعبارات التنديد بالإستعمار والإمبريالية والرجعية ومحاربة الصهيونية العالمية و"تحرير فلسطين".

ثالثاً: هي لعبة كذب، لأن الأنظمة العربية كلها ديكتاتورية كانت، أو رئاسية، أو ملكية، نادت دائماً وما تزال بالوحدة العربية الشاملة، ودرجت على تعيين وزير يسمّى وزير الوحدة، وقام بعضها بمحاولات حثيثة لإقامة وحدة بين نظام وآخر أو بين دولة وأخرى وقد باءت كلها بالفشل، وإنتهت بطلاق سريع أضحك الناس وسخر منه العالم.

ولتنشيط الذاكرة نسأل أين أصبحت وحدة مصر وسوريا في العام ١٩٥٨ وبعدها وحدة العراق والأردن، ثم مصر وليبيا، وليبيا وسوريا، وليبيا وتونس، وليبيا والمغرب... إلى آخر المعزوفة، عدا السهو والغلط؟ ثم أين هي "الجامعة العربية"؟ وما هي الأنظمة التي ما تزال تنتمي إليها، أو التي إنفصلت عنها؟ ومن يتقيّد بقراراتها وعلى من تمون؟

ونسأل أيضاً أين هي "السوق العربية المشتركة"؟ وأين أصبح "الدفاع العربي المشترك"؟

ومع ذلك يأتيك في هذه الأيام الرديئة من يحاول أن يفرض على لبنان الهوية العربية، والإنتماء العربي، و"المصير العربي المشترك" والمؤلم أكثر، هو أن هناك فئة من الناس ما تزال تؤمن بهذه الكذبة التي أصبحت بلا منازع كذبة هذا العصر وسخرية هذا الجيل.

إن مسيرة حرَّاس الأرز التي لم تعرف يوماً في قاموسها النضالي مكاناً للجبانة، والبخل، والكذب، تؤكد مَرّة جديدة على أن الشجاعة والكرم والصدق هي صفات مركزية يتحلى بها المحازبون ويمارسونها في كفاحهم اليومي، وإلا لفظتهم هذه المسيرة إلى غير رجعة.

شعب المأساة وشعب الفاجعة

لقد صار الخلط بين المأساة Tragedie وبين الفاجعة Drame، أمراً مألوفاً بين الناس، وكأن الكلمتين مترادفان، لا فرق بينهما ولا تمايز.

ولعل هذا الخلط جاء نتيجة الإلتباس بين المفهوم Concept وبين البنية الأدبية Structure بسبب إدراج كِلا اللفظتين تحت عنوان الفنّ التمثيلي L'art Dramatique، حيث يلتقي العمل المأسوي Tragique بالعمل الفاجعي Dramatique.

إن ما يعنينا في هذا المقال هو تحديد التمايز التاريخي والإنساني بين المأساة والفاجعة وليس التمايز الأدبي، لكي نعرف إلى أيّهما تنتمي أمّتنا اللبنانية في صراعها القديم ــ الجديد.

إن الفاجعة Drama تعني بالمطلق كل حالة إنفعالية تؤدي إلى خطر ما أو نهاية وخيمة، وهي دائماً مصيبة مألوفة، ظرفية وعادية، تصيب البشر، كل البشر على حَدٍّ سِواء.

والفاجعة هي عادة مصيبة معروفة الأسباب والأدوات والنتائج، وإن التغلّب عليها أمر ممكن بالإرادة والتصميم في أحيان كثيرة. فالموت مثلاً هو فاجعة لأنه مصير حتمي ومألوف ومشترك بين كل الناس وأن يكون التغلب عليه أمراً غير ممكن.

والحروب هي فاجعة لأنها تصيب كل الشعوب وفي كل الأزمنة، والنهوض منها يبقى أمراً ممكناً، لا بل هو الهدف الذي لا بد من بلوغه لتجاوزها إلى حالة من الطمأنينة والسلام.

والإنسان المفجوع يتعزّى لمجرّد الشعور بأن المصيبة التي أدركته هي مصيبة عاديّة وعامّة ومألوفة، وكذلك الشعوب أو أمّة من الأمم كما تفعل المأساة.

ما هي المأساة إذاً، ومن هو المأسوي؟؟؟

إن المأساة Tragedie، والمأسوي Tragique، مشتقان من الأسى، أي الحزن المقيم بإستمرار داخل النفس من غير أن تكون له دلائل ظاهرة على الوجه أو في السلوك اليومي.

فالمأسوي معاناة متواصلة، والمأساة حالة ألم وقلق متواصلين يغمران النفس حتى ولو لم يكن هناك فواجع.

وإذا كانت الفاجعة مصيبة مألوفة تصيب كل الناس، فالمأساة مصيبة فريدة تصيب فرداً دون غيره من الناس أو شعباً دون غيره من الشعوب.

وهذه الفرادة في المصيبة لا تترك مجالاً لصاحبها أن يتعزّى لأنها تدفعه إلى صراعات غير عادية في وجه أخطار غير عادية.

والمأساة هي من خصائص الشعوب العظيمة أو الأفراد العظام، وكأن الله قد فرض عليهم، دون سواهم، أن يصارعوا القدر ويغالبوا المستحيل.

فالإنسان المأسوي هو إنسان مزامل للخطر، والشعب المأسوي يعايش الخطر بإستمرار ويحمله في طيّات وجوده.

لذلك فإن بين المأساة والعظمة صلة وثيقة، وبين الشعب المأسوي والقدر صلة أكثر وثوقاً.

فالشعب المأسوي ليس مسموحاً له أن يضعف وإذا فعل فإلى زوال، أما الشعب الفاجعي فيمكنه أن يضعف من دون أن يزول.

والشعب المأسوي يهوى الخطر لشدّة ما يرتبط به، ويعشق التحليق لشدّة ما يطمح إلى الأعلى، لأنه لا يعرف إلى الإعتدال سبيلاً، ولا يكفّ عن التحدّي الذي هو علة وجوده، إنه يغامر في كل شيء، فإذا قفز فإلى القمم، وإذا هوى فإلى الهاوية، ولكن سرعان ما ينتفض، فيلملم جراحه بسرعة مذهلة ، وكأن الآلهة تتدخّل في آخر لحظة لإنقاذه، ليعود من جديد إلى مغامرة التحليق.

وما أسطورة الطائر "فينيكس" التي عاش عليها أجدادنا أجيالاً طويلة إلا تعبير صادق عن واقع هذا الشعب الذي جسّد المأساة في كل أبعادها وعلى مدى ستة آلاف سنة من التاريخ.

ولنا في هذا المجال غير شاهد على ذلك:

١- صور على صغرها، واجهت جيش الإسكندر على ضخامته، فإندثرت ثم قامت بسرعة فاقت كل تصوّر.

٢- صيدا على قلة عددها، واجهت جيش الفرس بقيادة أرتحششتا، فأمرت بحرق نفسها لتمنع عنه متعة الإنتصار، فنقذت بذلك أول إنتحار جماعي، ثم ما لبثت أن بُعِثت حيّة من بين الأنقاض.

٣- المردة على قلة عددهم، واجهوا جيوش الفتح العربية على كثرتها، فمنعتهم من دخول الجبل، وفرضت عليها الجزية والضرائب، في الوقت الذي كانت فيه تدقّ أبواب أوروبا.

٤- فخر الدين واجه منفرداً الإمبراطورية العثمانية، ودحر جيشها في عنجر.

٥- المقاومة اللبنانية على قلة عددها وإمكاناتها، واجهت منذ العام ١٩٧٥ وما تزال، جحافل الفلسطينيين والسوريين وحلفائهم من المأجورين والمرتزقة.

لقد كانت هذه الأمّة دائماً، أمّة المأساة، ولم تكن يوماً أمّة الفاجعة وقد سيّرها القدر بإستمرار بعيداً عن منطق الأمور الذي يسيّر بقيّة الشعوب العاديّة، أي بعيداً عن العلاقة السببية بين الأحداث والنتائج.

لقد تفرّدت هذه الأمّة بالخصائص التالية:

١- معضلاتها كانت وما تزال دائماً أكبر منها.

٢- طموحها غير محدود في رقعتها المحدودة، وهذا ما يفسّر إنتشارها الكبير في العالم.

٣- أعداؤها هم دائماً متفوّقون عليها في العدد والعدّة.

٤- صراعها هو دائماً صراع من أجل البقاء، وخيارها هو واحد: النصر أو الموت.

٥- حكامها كانوا، وما يزالون دون أحلامها وطموحها، لا بل إنها الأمّة الوحيدة التي، في أحلك ساعاتها، تآمر على قتلها أعدؤها وحكامها على حَدٍّ سواء.

ولكن الإنتصار كان دائماً إلى جانب القلة اللبنانية المسلحة بالحق والإيمان والقيم العظيمة.

لذلك ولإختصار هذا الواقع الفريد الذي تميّزت به أمّتنا العظيمة، أطلقنا في بداية الحرب علينا الشعار التالي: "**نحن شعب مأسوي قدرنا التّحدي وبيتنا الخطر**".

تحالف شعوب البحر الأبيض المتوسط

في المؤتمر الخامس للحزب، الذي عقدناه في بيت مري بتاريخ ٢٧ / ١٠ / ١٩٨٥ طرحنا فكرة إقامة تحالف بين شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط ومعناه بالإنكليزية Mediterranean People Alliance ومختصره .M. P. A.

بادىء ذي بدء يجب أن لا يتبادر إلى ذهن أحد، إن هذا الطرح جاء ردّة فعل على الطروحات الوحدوية العروبية أو هو متأثر بها، وهي الطروحات التي إنطلقت من "عقدة الجمل"، وقد أغرتها الأشياء الضخمة الحجم، فراحت تحلم بالأوطان الكبيرة، وجعلت تنادي بدمج الشعوب والقوميات المختلفة أو صَهرها في قومية واحدة هي "القومية العربية". وليس من يجهل الحروب والصراعات الجمّة التي أدّت إليها هذه الدعوة، والتي دفعت ثمنها شعوب هذه المنطقة وما تزال، من دون أن تحقق ولو خطوة واحدة مكتملة على طريق هذه الوحدة الوَهم.

من هنا، كان لزاماً علينا في طرحنا هذا، أن نبتعِد عن إستعمال كلمة "وحدة" وأن نقول بالتحالف، ونحن نعني به تحالفاً حضارياً، قد يبدأ بتعاون إقتصادي على غرار السوق الأوروبية المشتركة ليتطوّر مع الوقت، ويشمل باقي مجالات التعاون الإجتماعي والثقافي والسياحي والتكنولوجي ولا شيء يمنع في حال الحاجة الملحّة إلى تعاون عسكري.

أما شعوب حوض البحر الأبيض المتوسّط فهي لبنان وإسرائيل ومصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وإسبانيا وفرنسا وإيطاليا ويوغوسلافيا وألبانيا واليونان وتركيا وشمالي سوريا ومالطا وقبرص. ويجمع بينها واقعان: جغرافي وتاريخي.

أولاً: الواقع الجغرافي:

ويتمثل بهذا البحر المقفل على شكل بحيرة والذي كان يسمّيه الرومان Mare internum أي البحر الداخلي. وقد طبع هذا الواقع الشعوب القاطنة على هذا البحر، بطبائع مميّزة ومتقاربة إلى حدٍ ما.

ثانياً: الواقع التاريخي:

ويتمثل بالتفاعل والتداخل اللذان حصلا منذ فجر التاريخ بين هذه الشعوب، خصوصاً خلال عهدين مميّزين هما العهد الفينيقي وبعده العهد الروماني.

– ففي العهد الفينيقي وبالتحديد في القرن الحادي عشر قبل المسيح والذي تم فيه إنتشار الحضارة الكنعانية في حوض البحر المتوسط، خضعت شعوب هذا الحوض إلى الإمبراطورية الفينيقية التي نقلت إليها الحضارة في مختلف وجوهها وعلمتها الكتابة والملاحة وأصول التجارة، والحكم الديمقراطي وعلم الفلك والهندسة، والفلسفة والشعر وغير ذلك.

وقد تركزت سيطرة الفينيقيين على هذا البحر عندما أنشأوا قرطاجة على الشاطىء الجنوبي لهذا البحر (تونس اليوم) ومنها إنطلقوا لإكتشاف بقيّة البحور والقارات حتى وصلوا إلى أميركا وتركوا عليها بصماتهم.

– وفي العهد الروماني، وبعد إنتصار الرومان على الملك إنطيوخوس في العام ١٨٨ ق.م. ومن ثم على الإغريق في العامين ١٦٨ و ١٤٨، وأخيراً على قرطاجة في العام ١٤٦، إجتمعت شعوب هذا البحر كلها تحت راية الإمبراطورية الرومانية ردحاً طويلاً من الزمن.

وقد كان اللبنانيون وما يزالون عامل إستقطاب لشعوب هذه المنطقة.

يقول المؤرّخ الفرنسي دوروا في كتابه "تاريخ الرومان" ما حرفيّته "إن الكنعانيين الذين أنشأوا قرطاجة وجعلوها عاصمة لإمبراطورية عظيمة، هم الشعب الوحيد الذي إستطاع أن يجعل هذا البحر مُلكاً له، وأن يطلق عليه إسمه طوال حقبة من الزمن".

يثبت هذا القول إن هذا البحر، كان ملعباً للفينيقيين ومجالهم الحيوي لمختلف نشاطاتهم السياسية والحضارية والتجارية. وإن قيام إمبراطورية قرطاجة كان إفرازاً فينيقياً، تجلى يوم بلغت الإمبراطورية الفينيقية أوج مجدها. وبإختصار نقول: إن قرطاجة كانت طفرة فينيقية عظيمة.

ونحن اليوم، بل لبنان اليوم، يطرح هذا المشروع لثلاثة أسباب أساسية:

الأول، لأن هذا الطرح واقع تاريخي وجغرافي كما كرنا.

والثاني، لأن لبنان مؤهّل أكثر من سواه لهذا الطرح بإعتبار إنه أول من قام بتحقيقه.

والثالث، لضرورة إدارة وجه لبنان عن الصحراء وإعادته إلى خطه البحري الصحيح، المرتكز على ثوابت التاريخ والجغرافية.

نضيف إلى ذلك إن قيام هذا التحالف، يفتح المجال أمام لبنان كي يتفاعل حضارياً مع شعوب هذا الحوض، كما كان مؤهّلاً له، وبه يحصّن نفسه من محاولات الإحتواء والطمس والهيمنة الصحراوية المستمرّة ضدّه.

إن حياة لبنان هي في تعامله مع البحر، وموته في تعامله مع الصحراء.

الثورة على الحرف حلقة من الثورة الشاملة

كلنا يعلم إن الحرف إختراع لبناني، وإن كل أبجدية من أبجديات العالم، ما عدا الصينية واليابانية، هي بنت الأبجدية اللبنانية.

وكلنا يعلم كذلك، إن اللبنانيين عندما وضعوا هذه الأبجدية، وضعوها بشكل منطقي وسليم، أي إنهم وضعوا لكل نبرة واحدة (Phoneme) رمزاً واحداً يمثلها Signe أو Caractere.

وهكذا فقد وضعوا ٢٢ رمزاً ليجسّدوا بها ٢٢ نبرة كما هي مبيّنة أدناه:

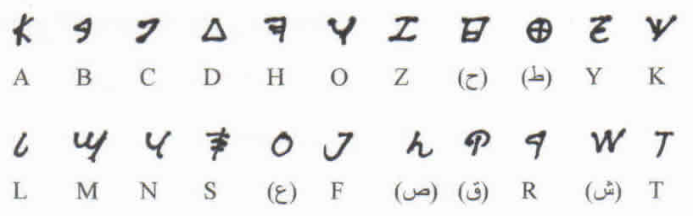

وكلنا يعلم بعد ذلك، إن هذه الرموز قد شوّهت بفضل الزمن وبعّدها عن أصلها، فأصبحت مجموعة إصلاحات لا تمتّ إلى المنطق بأية صِلة.

- إن الرموز K و Q و C وCK كلها تعبّر عن نبرة واحدة ال "K".
- وإن الرموز CH و SH و SCH و CSH كلها تعبّر عن نبرة واحدة هي ال "ش".
- وإن الرموز O و AU و EAU و EAUX كلها تعبّر عن نبرة واحدة هي ال "O".

بينما المبدأ الفينيقي قد حدد، وكما ذكرنا، رمزاً واحداً لكل نبرة واحدة.

ومما زاد في التشويه هو إن المحورين أوجدوا رموزاً تكتب ولا تلفظ، وعلى سبيل المثال نذكر:

Fille الرموز الثلاثة LLE لا تلفظ بينما الحروف ذاتها في كلمة Ville تلفظ.

وكذلك الرموز X و S و T لا تلفظ في الكلمات: Perdrix و Paradis و Petit.

والألف الثانية في كلمة "راحوا" لا تلفظ كذلك.

ومن الإمعان في التشويه والتعقيد إن هناك رموزاً تلفظ ولا تكتب أو بالأحرى تلفظ خلافاً لما تكتب وعلى سبيل المثال نذكر:

- Enough بالإنكليزية حيث ال GH أصبحت F.
- و Ball حيث ال A أصبحت O.
- و Cow حيث ال O أصبحت A.
- و Now حيث ال O أصبحت A.

بينما المبدأ الفينيقي قال بأن كل رمز يكتب يجب أن يلفظ وكل رمز يلفظ يجب أن يكتب.

إن هذا التشويه الذي أصاب الأبجديات العالمية كلها، والذي خالف كل منطق وأصول، ساهم إلى حدٍ بعيد في "خربطة" العقل الإنساني، ودفع بأجيال وأجيال من البشر إلى معايشة الغلط ومصاحبة اللامنطق ومسايرة الشواذ.

وعلينا أن لا ننسى أيضاً أن الفينيقيين الذين إخترعوا الأبجدية، إخترعوا كذلك الأرقام من واحد إلى تسعة، إنطلاقاً من الرموز التسعة الأولى في أبجديتهم، وكذلك الصفر وهو الرمز التاسع بعد أن فرّغوا محتواه فأصبح "0".

وفي القول إن العرب هم مكتشفوه مغالطة تاريخية مفضوحة.

وقد سار الفينيقيون وفق المبدأ التالي:

إن حروف الأبجدية يجب أن تكون كالأرقام، فكما أن الرقم ثابت لا يتغيّر كيفما إستعمل وأينما إستعمل، فكذلك الحرف يجب أن يكون ثابتاً لا يتغيّر مهما إختلفت ظروف إستعماله.

إنطلاقاً من هذا الواقع المزري الذي تتخبّط فيه كل أمم العالم، رأينا إن من حق اللبناني، لا بل من واجبه أن ينبري هو دون غيره إلى تصحيحه وإعادته إلى جذوره الأصلية بإعتباره صاحب المدرسة والأساس.

ولقد جرت محاولات عديدة لإصلاح الأبجدية، ولكنها جميعاً أخطأت الهدف إلى أن جاء الأستاذ سعيد عقل، فإعتمد الأحرف اللاتينية المنبثقة من الفينيقية التي ذكرناها آنفاً، فأعاد بذلك "لعبة" الحروف الأبجدية إلى مجراها الصحيح،

فأتت على الشكل الآتي:

Ç	B	P	T	Ŧ	J	X	K	D	Ḍ	R	Z
همزة	B	P	T	(ط)	J	(ح)	(خ)	D	(ض)	R	Z
Ẓ	S	Ṣ	C	Y	Ġ	G	F	V	Q	L	M
(ظ)	S	(ص)	(ش)	(ع)	(غ)	G	F	V	(ك)	L	M
N	H	W	A	I	E	O	U	Y			
N	H	(و)	A	I	E	O	U	(ye)			

أما نحن فقد قررنا في حركتنا وفي كتابتنا إعتماد هذه الرموز المعدّلة تمهيداً لإعتمادها في كل لبنان ومن ثم نشرها في العالم تمشّياً مع رسالة أجدادنا، وذلك في ظروف لاحقة نأمل أن لا تكون بعيدة.

إن الثورة على الحرف حلقة من الثورة الشاملة التي نعد لها. وإن التخلص من الحرف العربي لا بد منه، لأننا بإعتمادنا إياه، أسهمنا إلى حدٍ بعيد في "عربنة" لبنان، إذ أضفى عليه ثوباً عربياً، وإستمرار إستعماله، إستمرار لنهج العربنة.

إن تراكم المعضلات المزمنة في لبنان وحالة الإهتراء الشامل والإنحلال التام التي وصلنا إليها، يحتمان علينا من الآن وصاعداً إعتماد الحلول الجذرية دون غيرها.

وإن حركة التغيير التي ننادي بها ونناضل من أجلها، أما أن تكون شاملة أو لا تكون أبداً.

الثورة على اللغة

رأينا في بحثنا السابق، إنه لا بد من تغيير الحروف المعمول بها حالياً في كل الأبجديات المعتمدة في العالم، لا لأنها مشوّهة فحسب، بل لأن إستمرار العمل بها يشوّه المنطق ويخربط العقل.

وفي بحثنا اليوم عن اللغة، سنعتمد كذلك على نظرية الأستاذ سعيد عقل، لنؤكد على ضرورة التخلي عن اللغة العربية وإستبدالها باللغة اللبنانية، كلغة رسمية للبلاد.

يقول عِلم اللغات: إن كل لغة من لغات العالم تتطوّر وبإستمرار، نحو لغة أكثر أناقة وإختصاراً، ومع مرور الزمن تهرم اللغة الأصل وتموت وينتهي التعامل معها وتحل محلها إبنتها اللغة المتطوّرة.

فاللغة المتطوّرة هي دائماً اللغة التي يتعامل معها اللسان، بينما اللغة الهرمة، كالعربية واللاتينية والآرامية مثلاً، هي اللغة التي كان اللسان يتعامل معها في زمان، ثم هرمت وأفسحت في المجال أمام لغة أكثر تطوّراً منها.

إن اللغة تشيخ تدريجياً، تماماً كما الإنسان، ولا نلاحظ علامات التغيّر عليها إلا بعد مرور سنوات عديدة.

إذاً بإختصار، نقول إن اللسان يطوّر اللغة بإستمرار، فتتولد من اللغة الأمّ، لغة منتشرة، تكون آنق منها وأوجز وأسهل. بمعنى آخر اللغة المولودة، أي لغة اللسان بل اللغة المتدولة التي تخلف الفصحى هي لغة التعامل التي عمل التداول في تشذيبها وتهذيبها فصارت:

١- أكثر أناقة: أي إن الأحرف الثقيلة يلغيها الإستعمال، فالقاف مثلاً تصبح (أ) همزة. والثاء تصبح (ت) تاء. والظاء تصبح (ز) زين.

٢- أكثر إختصاراً: أي إن الجُمَل تصبح أقصر. نقول بالفصحى مثلاً: "تعال إلى هنا"، ت/ع ا/ ل/ إ/ ل/ هـــ/ ن ا/ وفيها سبعة مقاطع.

أما باللبنانية فنقول "تعا لهون" وفيها ثلاث مقاطع.

هذا يعني إننا بإعتمادنا اللغة المحكية، نختصر الوقت إلى أكثر من ثلث. أي إن الدرس الذي يتطلب خطابه بالفصحى ثلاث ساعات، لا يتطلب أكثر من ساعة بالمحكيّة.

٣- وأكثر سهولة: أي إن تطوّر اللغة يؤدّي حتماً إلى إختصار قواعدها وزوال تعقيداتها.

نقول بالفصحى مثلاً: "أكلت إثنتي عشرة تفاحة" وفي هذه الجملة خمس قواعد، بينما نقول بالمحكيّة: "أكلت تنعشر تفاحة" وفيها قاعدة واحدة هي زيادة الراء على كلمة "تنعش" لسهولة اللفظ.

وتوضيحاً لما ذكرناه آنفاً، أعطي المثلين التاليين:

أ- إن تطوّر اللغة في الزمان يشبه مجرى النهر، الذي كلّما طال إنسيابه كلما تفرّعت عنه جداول. فالجداول بالنسبة إلى النهر هي اللغات، المتطوّرة التي تتفرّع عن اللغة الأمّ.

ب- إن تطوّر اللغة يشبه أصابع اليدّ المتفرّعة عن الذراع، بحيث أن زاوية التباعد بين هذه الأصابع تزداد مع المسافة والزمان. فالذراع تمثّل اللغة الأمّ. بينما الأصابع تمثّل اللغات المنبثقة من اللغة الأمّ.

وإذا أخذنا اللغة اللاتينية مثلاً، نرى أنها، بقيت تمثّل اللغة الأمّ لمعظم لغات أوروبا، إلى أن شاخت الأمّ، فتفرّع عنها أربع لغات رئيسية حلّت مكانها هي: الفرنسية، والإيطالية، والإسبانية، والبرتغالية.

لقد بدأت محاولة التخلي عن اللغة اللاتينية في القرن الثالث عشر مع شاعر إيطالي الكبير دانتي، حين نادى بإعتماد اللغة المحكية مكان اللاتينية التي كانت تمثّل اللغة الفصحى. وقد قامت القيامة يومذاك، وإعتبرت نظريته هرطقة ومؤامرة للقضاء على تراث اللاتينية. ولكن التطوّر، الذي هو دائماً أقوى من كل جمود وتخلف، عاد فإنتصر وسارت إيطاليا بعدها إلى اللغة المحكيّة فإعتمدتها.

وكذلك فعل ديكارت في فرنسا، فقد تنبّه إلى لعبة التطوّر هذه في أوائل القرن السابع عشر وقرر أن يضع كتابه الأخير "العناصر "Elements" باللغة العامية آنذاك، التي هي الفرنسية. وقد جاء كتابه هذا من أشهَر ما وضع.

إذاً المبدأ الذي يجب أن نلتزم به هو إن على اللغة أن تواكب العصر فتتطوّر معه بإستمرار، لكي تتوافق وتقدّم الحضارة، فلا يجوز أن نتكلم بلغة الجاهلية في عصر الذرّة، ولا بلغة أمرىء القيس في القرن العشرين.

عِلماً أن اللغة العربية الفصحى، كانت في العصر الجاهلي، اللغة المحكية عند الناس في قريش، واليوم زالت لأنها لم تعد اللغة المحكيّة عندهم بل صارت اللغة المكتوبة.

بإختصار يجب إعتماد اللغة المحكيّة، والتخلي عن اللغة التي كانت محكيّة ولم تعد كذلك اليوم.

وعلينا أن نعلم أيضاً إن الإنسان لا يمكنه أن يبدع إلا بلغته المحكيّة، هذه اللغة التي يعيش معها أربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة. يفكر بها ويعبّر عن مشاعره وأحاسيسه، وحتى في أثناء نومه عندما يحلم فإنما يحلم بها.

إن أحد أسباب فشلنا، في السياسة اللبنانية، ناتج عن هذه الإزدواجيّة في التعامل مع اللغة. فترانا نتكلم بلغة هي اللبنانية، المحكيّة، ونكتب بلغة أخرى هي اللغة العربية الفصحى. وقد نتج عن هذه الإزدواجيّة، سلبيات عديدة نعاني منها كل يوم.

إن اللغة اللبنانية، ولا أقول باللهجة اللبنانية كما يحلو للبعض أن يقولوا، هي اللغة التي يجب إعتمادها اليوم في لبنان نطقاً وكتابة، ويجب التخلي عن العربية الفصحى فقط للذين يودون التخصص في علم اللغات القديمة.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن اللغة اللبنانية التي نستعملها اليوم، ستصبح بعد مئات السنين لغة فصحى، وستحل مكانها، حتماً لغة متطوّرة يهذبها اللسان ويحسنها وعندها على الأجيال القادمة أن تعتمد تلك اللغة وتتخلى عن هذه.

ولا بدّ من التأكيد على أن تفوّق أوروبا وأميركا والإتحاد السوفياتي يعود إلى حدٍّ كبير إلى تخليهم عن هذا "القرق" الذي هو اللغة الفصحى وإعتمادهم اللغات المحكيّة، فهم يكتبون ويتكلمون باللغة ذاتها، الأمر الذي سهّل عليهم أموراً كثيرة وساهم في تطوّر شعوبهم.

أضف إلى ذلك، إن اللغة الهرمة، هي كما ذكرنا، لغة معقدة، وجامدة فهي لا تستطيع أن تستوعب الكلمات والعبارات والبنى الجديدة التي يخترعها العِلم كل يوم، وذلك عائد إلى تركيبها المعقّد.

وكلنا يعلم إن المختبرات العلمية التي يربو عددها على الآلاف، والتي تعمل ليل نهار، في حقل الإكتشافات العلميّة، تضع كل يوم عشرات الأسماء الجديدة لتسمّي بها العناصر الجديدة المكتشفة.

لذلك إذا أبقينا على اللغة العربية الفصحى، فإننا لن نتمكن أبداً من إستيعاب هذه المفردات الجديدة، وبالتالي مواكبة هذا التطوّر الحضاري الجارف. وهذا من

شأنه، أن يزيدنا تخلفاً على تخلف، وجهلاً على جهل، بينما اللغة اللبنانية المحكيّة تستوعب هذه المفردات نظراً إلى مرونتها.

إن الثورة على اللغة، يجب أن تبدأ بموازاة الثورة على كل الأمراض والأورام السرطانية المتفشّية في جسم اللبناني وعقله. وإلا فإن اللغة الفصحى ستبقى العائق الكبير الذي يعيق كل تطوّر وتقدّم.

إن تحرير لبنان، يبدأ بتحرير الإنسان اللبناني، من التعقيدات والرواسب والعوائق. فإذا لم تتحرر لغته، فلن يتحرر عقله، وإذا لم يتحرر عقله فإنه سيبقى مواكباً الجهل والتخلف إلى ما شاء الله.

لقد سبقتنا أوروبا إلى هذه الثورة، فكانت نهضتها كبيرة، ومن ثم جاء الإتحاد السوفياتي، الذي إعتمد كل اللغات المحكيّة على أرضه وعددها ١٤٧ كلغات رسمية، فكانت نهضته الثقافية العظيمة.

وها نحن اليوم، جئنا لنعد اللبنانيين بالتغيير. والتغيير قادم لا محالة، فمن أراد أن يواكب هذه الحركة فليتفضّل ويلعب دوره فيها، ومن عاندها، فليعلم إن الثورة ستجرفه حتماً.